د. حنون مبارك

دروس في السيميائيات

توصيل المعرفة



دار توبقال للنشر
عمارة معهد التسيير التطبيقي. ساحة محطة القطار
بلفدير. الدار البيضاء 05 ـ المغرب
الهاتف : 24.06.05/42

تصميم الغلاف : عبد الله الحريري

دروس
في السيميائيات

إهـــــــداء ٢٠١٢

محمد صالح الضالع

جمهورية مصر العربية

د. حنون مبارك

دروس في السيميائيات

تمَّ نشرُ هذَا الكِتاب ضِمْن سِلسِلة
توصيل المعرفـة

الطبعة الأولى 1987

رقم الإيداع القانوني : 1987/484

تقديـم

لا أتوخى من هذا الكتاب سوى تقديم مجموعة من المعارف الضرورية والمفاهيم الأساسية للسيميائيات. وقد حاولت جهد المستطاع أن أكون أميناً في نقل وتعريب النصوص المعرّفة بهذا العلم ومفاهيمه وأمينا للتعبير العربي رغم وفرة المصطلحات الأجنبية التي تطلب مني وضعها بعض الاجتهاد ، فعسى أن أكون موفقا فيما اخترته.

وإذا كنت قد حاولت عرض أهم الاتجاهات السيميائية ــ رغم صعوبة بعضها وأخص بالذكر سيميوطيقا بورس Pierce ــ وأهم المفاهيم والأدوات ، فإنني حاولت إبراز اتجاهين بخستهما الثقافة العربية حقهما وهما : سيميوطيقا بورس وسيميوطيقا الثقافة المستفيدة من رمزية كاسيرر.

وبجانب النظريات السيميائية ومفهوم الدليل والتواصل والاخبار والدلالة والبرمجة والأنساق الدلالية ، وفي سياق عرض الاتجاهات السيميائية ، عرضت لمشكل الدلالة والمرجع منتهياً إلى تبني وجهة نظر سيميائيات الثقافة في معالجتها لهذين الأمرين.

ورغم أن الكتاب يبدو عرضاً لأفكار واتجاهات مختلفة ، فإن في طيّاته سيميائيات تنقد نفسها باستمرار ، وتعيد بناء أسسها ومفاهيمها وأدواتها بعيدا عن أية نظرة ميتافيزيقية أو مثالية. فإما أن تكون السيميائيات نقدا للواقع ولنفسها ، باعتبارها جزءا من هذا الواقع ، وإما ألّا تكون. ولعل أهم ما يترتب عن ذلك ، بالنسبة إلى هذا العلم ، تداخله مع عدة مجالات معرفية ، وبالتالي إعادة السيميائيات إلى موقعها الطبيعي ضمن مجموع النشاطات الفكرية للانسان متجاوزة بذلك ما قد يُلصَقُ بها من هيمنة و«توسعية».

وإذا كانت السيميائيات «علما من بين العلوم» أو «العلم كله» أو «نقدا للعلم وللايديولوجيات» في منظور بعض الاتجاهات السيميائية ، وإذا كانت قد مورست وفق هذه التصورات الثلاثة في الغرب ، فإنها ما تزال في وطننا العربي بعيدة عن أن تناسب أي تصور من هذ التصورات الثلاثة لأنها لم تعالج بعدُ مجموعة من الميادين ولم تنطلق من أرضية علمية ومعرفية شمولية كتلك التي ينطلق منها السيميائي الايطالي أمبرطو إيكو Umberto Eco .

فعسى أن نطعم السيميائيات النظرية بسيميائيات تطبيقية تطال مختلف أوجه حياتنا.

حنون مبارك

1987 — 7 — 20

الفصل الأول

التواصل والدّلالة والبرمجة

1. مفهوم الإخبار : Informatisation

1.1. الإخبار وعناصره

عادة ما نسند إلى لفظة «إخبار» ، في الاستعمال ، عدة دلالات مختلفة. ولكي نقترب من تفسير كيفية استنباط الاستعمالات المختلفة لهذه الكلمة واستعمالاتها العلمية والتقنية يرى روني طوم René Thom أن التحليل البنيوي للمفهوم المتداول للاخبار يمكنه أن ييسر علينا هذا الأمر.

هكذا ، يتوصل روني طوم إلى أن خطاطة سيرورة الاخبار والاستخبار تشتمل على ذاتين أي فاعلين actants : مستخبِر demandeur ومُخْبِرdonneur . ويكون المستخبر في حالة جهل تام تمنعه من الفعل بينما يملك المخبر إمكانات سد الحاجة التي يعاني منه المستخبر. ويلاحظ روني طوم أن هناك فاعلا موسوماً actant marqué ويتعلق الأمْرُ بالرسالة message التي يوجهها المخبر الى المستخبر ، كما يلاحظ أن دلالة لفظة إخبار تَتَبَأَّرُ على هذا الفاعل. أما الأشياء المتبقية فتشكل هالة من الاقتضاءات التي تحيط بهذه النواة التي كَوَّنَها نقل الرسالة من المخبر الى المستخبر.

من هنا ، يخلص روني طوم الى أن **هذا التعقيد هو الذي يفسر عدم الاستقرار الدلالي لكلمة إخبار** ، ذلك أن الذهن ، نظرا لعجزه عن تصور سيرورة في مثل هذا التعقيد ، ينزع إلى أن يطرح جانبا هالة الاقتضاءات كليا أو جزئيا هادفاً من وراء ذلك الى تبئير النواة. وقد أفضت به هذه الخلاصة الى القول بأن التغييرات التي تلحق بمعنى الاخبار تتعلق ، في الجوهر ، بجزء من المقتضيات التي تم إلغاؤها (1).

(1) Modèles mathématiques de la morphogenèse P.179–181.

اعتماد على هذا التحليل البنيوي ، يعالج روني طوم الاستعمالات المختلفة لكلمة إخبار ، فيقف عند المعاني غير التقنية لهذه الكلمة :

1 ـ المعاني المحصّل عليها بواسطة الالغاء التدريجي للمستخبر : ويتعلق الأمر هنا بمعنى الاخبار في القضاء. إذ يُجْعَل من المستخبر ، في هاته الحالة ، كيانا جماعيا وفئة اجتماعية يتوحد فيها المتكلم باعتباره عضوا فيها ، وبذلك يُبْعَدُ المستخبر. وهذا هو ما يحدث في الاستعمال القضائي للفظة «إخبار». إن ، في هذه الحالة ، نوعاً من الالغاء للمتلقي ، الشيء الذي يُعَد طبيعيا لأن المستخبر والملتقي يشكلان ذاتا واحدة. وقد تتمحور الدلالة حول المخبر حينما تُنْتَزَعُ منه معلومات عن طريق أشكال عنيفة كالتهديد والتعذيب. وتلك هي حالة الاخبار بالمعنى البوليسي أو بالمعنى التجسسي.

2 ـ الاخبار بالمعنى الصحفي : وفي هذه الحالة ليس هناك استخبار بالمعنى الدقيق إذ يعمد الصحفي الى اختلاق الاستخبار أو افتراض وجوده. ويؤدي ذلك الى تنويع كبير في المحتوى الدلالي للاخبار.

3 ـ الاخبار بمعنى تقنيات الاشهار : الاخبار ، في هذه الحالة ، مفروض على المتلقي الذي لم يطلبه. أما محتوى الاخبار ، فهو أكثر إفادة للمخبر منه الى المتلقي. (2).

وبخصوص الاستعمالات العلمية لكلمة «إخبار» ، يستعرض روني طوم معنى الاخبار في نظرية الاخبار عند شانون Shannon وويفر Weaver ، ويستعرض كذلك استعمالات هذا المصطلح في البيولوجيا :

1 ـ الاخبار عند شانون وويفر : إن نظرية الاخبار بالمعنى التقني تعتبر ، في الواقع ، نظرية للتواصل. وتُلْغَى ، في هذه النظرية ، كل الاقتضاءات ولا يُحْتَفَظ إلا بـ : المصدر Source والرسالة والمتلقي؛ بل إنه يتم ، بالتدقيق ، استحضار قناة للتواصل. وتسعى هذه النظرية الى مقارنة بنية الرسالة المتلقاة بالرسالة المبثوثة (أثر الضوضاء bruit على العلامة Signal).

2 ـ استعمالات مصطلح إخبار في البيولوجيا : ويتعلق الأمر هنا ، في الجوهر ، بالاخبار «الوراثي» لنوع حي. ويقترح روني طوم تأويليْن لذلك : يرى أولهما البويضة بوصفها رسالة بعث بها أحد الأبوين ، أما المتلقي فهو الجنين النابع من البويضة ذاتها؛ وعليه ، فإنه يتوجب علينا أن نعتبر أن متلقي الرسالة هو الرسالة. وواضح أنه من الصعب دعم مثل هذه النظرة. أما التأويل الثاني فيعتبر العضوية الحية مخبراً ، بينما يعتبر المتلقي هو نفس الملاحِظ. وبتعبير أدق ، فإننا نعتبر أن أية مورفولوجيا morphologie طبيعية هي بمثابة رسالة قد بعث بها مصدر وهمي الى العالِم (بكسر اللام) الذي هو المستخبر. ولا تبدو الغاية

(2) نفسه ص 181 ـ 182

من هذه العملية بوضوح إلا إذا افترضنا وجود المنفعة التي يحصل عليها الانسان والمتمثلة في معرفة مايراه ويلحظه (3).

وفي الأخير ، يؤكد روني طوم أن فكرة الاخبار تضمر وجود مستخبر يستفيد من معرفته للاخبار ، كما تضمر وجود مخبر يمد السائل بالاخبار ، عموما ، عن طيب خاطر.

إننا حينما نعجز ، من خلال كل استعمالات كلمة «إخبار» ، عن تحديد هذه العناصر الأربعة : مستخبر واستخبار ومخبر ومنفعة يتوصل بها المستخبر من خلال معرفته للاخبار ، فإنه ينبغي ، فيما يتعلق باستعمال هذه الكملة ، أن نكشف عن انحراف ما : وتلك حالة الاستعمالات التي لا يظهر فيها الاستخبار والتي لا يتوفر فيها الاخبار على منفعة أو على منفعة كافية بالنسبة الى المتلقي. فالصحفي ، مثلا ، يضفي على معنى الكلمة انحرافات غير مقبولة مثلما هو حال الدعاية.

أما في الاستعمالات العلمية ، وخاصة في البيولوجيا ، حيث يتم إقصاء المستخبر أو المخبر ــ المصدر ، فإن الانحرافات ، إذا حصلت ، لا تعدو كونها انحرافات متصلة بما هو ثقافي. ذلك أن استعمال كلمة «إخبار» ، في حالة «الاخبار الوراثي» ، قد تستخدم لاخفاء الجهل الشبه التام بالعمليات المورفو ــ وراثية. وبهذا المعنى ، فالاخبار هو شكل العِلِّيَّةِ الغامض (4).

يتضح ، من خلال هذا التشريح للاخبار ، أن للاخبار أربعة عناصر هي : المستخبر والاستخبار والمخبر والمنفعة التي يجنيها المستخبر من الخبر. وفي حالة تحقق هذه العناصر الأربعة ، يمكن الحديث عن المفهوم الأمثل التام للاخبار. غير أن مثل هذا المفهوم قد يكون عرضة لمجموعة من الانحرافات الناتجة عن الأسباب التالية :

ــ غياب المستخبر أو غياب الاستخبار ،
ــ غياب المتلقي أو المخبر ،
ــ انعدام المنفعة بالنسبة إلى المستخبر ،
ــ تمتع المخبر بالمنفعة ،
ــ كون الرسالة تصير هي المتلقي
ــ كون المرسل وهميا
ــ كون المستخبر هو العالِم (بكسر اللام)

ومن الممكن أن يضاف إلى عناصر الاخبار عنصر خامس هو القناة.

(3) نفسه ص 183 ــ 184
(4) نفسه ص 184 ــ 185

2.1. الإخبار وكيفية تشكيله

استعرض امبرطو إيكو مفهوم الاخبار في نظرية شانون وويفر متوخيا الوقوف عند كيفية تشكيله مسجلا ، في البداية ، ما يلي :

1 ــ لا دور للمدلول في نظرية الاخبار ولا يمكن أن يؤخذ بعين الاعتبار.

2 ــ الاخبار هو أكثر مما قيل ، إنه ما يمكن قوله.

3 ــ يمثل الاخبار حرية في الاختيار نتمتع بها حال تشكيل الرسالة وتكوينها (5).

4 ــ توفرنا على إمكانات متعددة لتأليف العناصر وعلى عدد غير محصور من العناصر.

وأمام الاخبار المتزايد للمصدر والتوسع الكبير للاختيارات الممكنة الموجودة في المصدر قبل اختيار الحدث وبث الرسالة ــ أي أمام حالة من الفوضى ــ يلزم العمل على بَنْيَنَةِ الاخبار الذي يتطلب الاجراءات التالية : إن نقل الاخبار الممكن مع تحديد الرسالة التامة يتطلب إدماج السَّنن Le code الذي يقوم بوظيفة ترتيب وتنظيم ، إذ بواسطة السنن نَحُدُّ من إمكانات التأليف بين العناصر كما نحصر عدد العناصر ، فيتقلص بذلك إخبار المصدر ويتزايد إمكان نقل الرسائل (6).

والسنن عبارة عن نسق من القواعد التركيبية الخالصة إذ يختار رموزا ويبعد أخرى ، كما يضع السنن قواعد دلالية. وبعبارة أخرى ، إذا كان السنن قد قام بانتقاء وحدات قابلة للتأليف مبعدا وحدات أخرى ، بصفة تركيبية خالصة ، فلأن هذه العملية تستخدم لتتيح إنجاز وظيفة دلالية.

ولأننا لا نتوخى غير الاخبار بشيء دقيق وذي أهمية ، فإن السنن يختار أوضاعاً غير مستمرة ومتميزة ومقتطعة من امتداد الوقائع الممكنة ، وهو يختارها بصفتها وحدات مميزة للتواصل الذي يهمنا (7).

واضح أن أمبرطو إيكو قد أضاف عنصراً آخر إلى عناصر الاخبار السابقة وهو السنن. إلا أن ما ينبغي كشفه هو أن الاخبار ، هنا ، يخص عَالَمَ العلامة Signal لا عالم المعنى sens. فإذا تعلق الأمرُ بالآلة ، فإننا لا نمتثل إلا للمتطلبات التالية :

أ ــ وجود مصدر فيزيقي لأحداث ممكنة انتقى من بينها السنن بعض الأحداث التي ارتآها مميزة.

ب ــ الجهاز المستقبِل عبارة عن آلة تستجيب بشكل أحادي للرسالة المتلقاة.

جـ ــ اشتراك المرسل والمتلقي في سنن واحد ، وهو سنن بسيط جدا.

(5) La Structure absente. P. 46 — 47.

(6) نفسه ص 47 ــ 48

(7) نفسه ص 49

د ــ لا تضع الآلة، باعتبارها مرسلا أو متلقيا، السنَن موضع تساؤل وشك ونقاش (8).

أما إذا تعلق الأمر بالانسان، فإن المتطلبات تصبح هي التالية :

أ ــ يتوحّد المصدر والمرسل، كما يتوحد، الى حد ما، المرسل والسنن.

ب ــ نستبدل الآلة المستقبلة بالانسان، فننتقل بذلك من عالم العَلامة الى عالم المعنى.

جـ ــ يتعدد السنن ولا تصير الأنواع السننية Les codes مشتركة بين المرسل والمتلقي. وفي هذه الحالة، تصبح الرسالة مصدرَ الاخبار.

د ــ نفترض أن المرسل والمتلقى قد يضعان السنن، في بعض الحالات، موضع تساؤل ونقاش (9).

لكن، كيف ننتقل إلى عالم المعنى ؟ وما الذي يحدث آنئذ ؟ إننا ننتقل الى عالم المعنى حينما نستبدل الآلة المستقبلة بإنسان متلق، فنفتح، آنذاك، سيرورة دلالة لأن العلامة تصير شكلا دالا ينبغي على الانسان المتلقي أن يملأه بمدلول معين. وإذن، فإن الانسان المتلقي يسند معنى معينا إلى العَلَامَةِ. ويطلق أمبرطو إيكو على سنن الانسان المتلقي سنناً وضعيا Code dénotatif. إلا أن هذا المتلقي الانسان ينبغي له أن يحصل أيضا على سنن آخر مُعَدٍّ انطلاقا من السنن الأول، وذلك حينما يصبح المدلول الوضعي، بدوره، دالا ذا مدلول. وهذا المدلول الثاني هو المدلول الايحائي لمدلول وضعي مضمر. غير أن المتلقي الانسان يمكنه أن يحصل على سنن إيحائي آخر. وهذان السننان الايحائيان لايلغي أحدهما الآخر، إلا أنهما يشتغلان بالتناوب حسب المقام الذي يوجد فيه هذا المتلقي الانسان (10).

هكذا يستحضر أمبرطو إيكو مفهوما جديدا هو مفهوم **المقام** الذي يتم في إطار التواصل. والمقام هو السياق الخارج سيميوطيقي extra-Sémiotique الذي يحدد اختيار سنن بدل سنن آخر (11).

إن أمبرطو إيكو يخلص بنا إلى أن هناك وُجُوداً لِسَنَنٍ وضعي أساس مُطعَّم بأنواع سننية صغرى اختيارية في الغالب يمكن اعتبارها كأنواع سننية فرعية Sous-codes. والسنن وسلسلة الأنواع السننية الفرعية جزء لا يتجزأ من الممتلكات المعرفية للمُبَلِّغ، وتتحكم في هذه الأنواع

(8) نفسه ص 54

(9) نفسه. نفس الصفحة.

(10) نفسه. ص 55 ــ57

(11) نفسه ص 57

السننية سلسة من الشروط الخارج سيميوطيقية التي يمكن جمعها في فئتين عامتيْن هما : مقام التواصل ومجموع الممتلكات المعرفية (12).

وبعد ، فإنه يمكننا أن نخلص الى الاستنتاجات التالية :

— يتطابق المصدر والمرسل مع الانسان الذي يصبح باعث الرسالة.

— حينما يتكلم الانسان ، فإنه لا يقوم بذلك بحرية إذ يمتثل للسنن مما يؤدي الى الاعتقاد بأن المرسل مُتَكَلَّمٌ به est parlé بواسطة السنن ذلك أن ميكانيزمات اللغة قد تدفع بالمتكلم إلى أن يقول أشياء عوض أخرى ، فيصبح السنن مصدرَ الاخبار.

— المرسل عبارة عن متكلم خاضع لأفعال شرطية بيولوجية وثقافية خاصة به.

— إن إنتاج المعنى خاضعٌ لشروط متعددة (13).

يبدو أنه من الممكن القول ، في حدود ما وصلنا إليه ، أن تشكيل الاخبار يستوجب مجموعة من العوامل خاصة إذا تعلق الأمر بالاخبار الموجه الى الانسان. وتنحصر هذه العوامل في سنن منظّم لسيرورة الاخبار وأنواع سننية فرعية ومقام.

3.1. بنية الإخبار أم بنيات الإخبار

من خلال ما سبق ، يمكن اعتبار بنية الاخبار المثالية متكونة من العناصر التالية : 1 — المرسل ، 2 — الرسالة ، 3 — المتلقي ، 4 — السنن ، 5 — الأنواع السننية الفرعية ، 6 — القناة ، 7 — المقام ، 8 — المنفعة.

وعلى عكس ذلك ، يرى ياكوبسون أن العوامل المُكَوِّنَة لكل تواصل لفظي تنحصر في ستة عوامل : المرسل والرسالة والمرسل إليه والسياق Contexte (أو «المرجع» référent) والسنن والاتصال contact. ويمثل لمختلف العوامل بالرسم التالي :

سياق

مرسل — — — — — — رسالة — — — — — — مرسل إليه

اتصال

سنن (14)

واضح أن البنية الاخبارية التي اقترحها ياكوبسون تختزل بنية الاخبار السابقة إذ تلغي الأنواع السننية الفرعية والمنفعة.

(12) نفسه. نفس الصفحة

(13) نفسه. ص 58

(14) Essais de linguistique générale. Points P. 213—214.

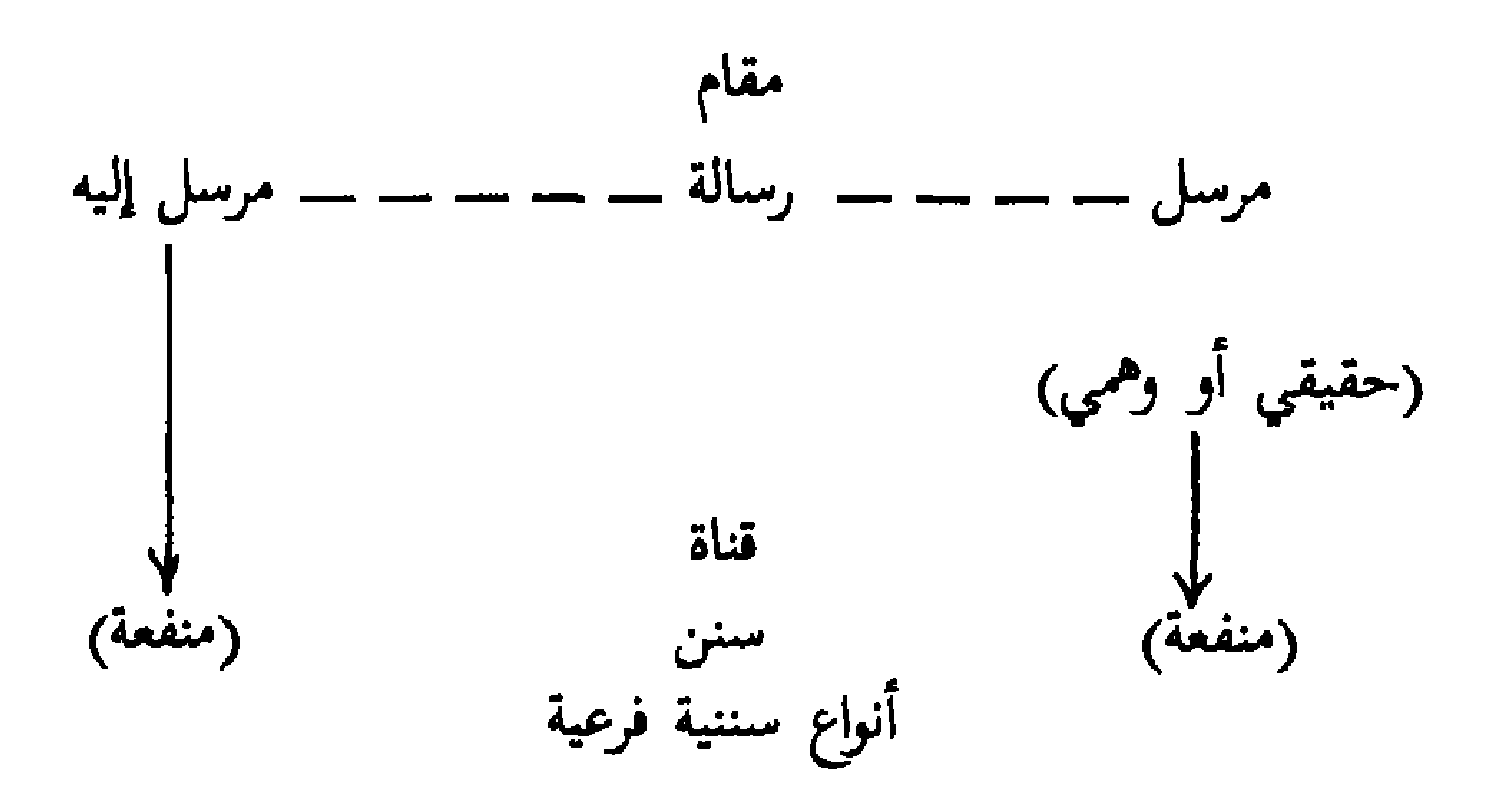
غير أننا لاحظنا في ماسبق أن الاخبار ليس دائما تام البنية إذ قد لا تُسْتَحْضَرُ جميع العناصر ، دائما ، في الأخبار بل إن عنصراً واحدا قد يقوم بوظيفته ووظيفة عنصر آخر. وعليه ، فإن خطاطة التواصل عند ياكوبسون تبقى خطاطة مثالية نسبيا. وإذن ، فإنه يلزم وضع خطاطات تناسبُ ما سبق أن أظهره كل من روني طوم وأمبرطو إيكو. وقبل وضع مثل هذه الخطاطات ، لابد من التذكير بما قد ينقص من العناصر وبالعناصر التي قد تقوم مقام غيرها دون أن ينتفي دورها الخاص :

— قد ينعدم وجود المرسل أصلا وقد يكون مرسلا وهميا ،
— قد يقوم السنن بدور المرسِل ، فَيُلْغَى بذلك المرسل كعنصر قائم الذات ،
— قد تصير الرسالة هي المرسل ، وبذلك يلغى المرسل كعنصر مستقل الذات ،
— قد يلغى المتلقي ،
— قد تقوم الرسالة بدور المتلقي ،
— قد تغيب الأنواع السننية الفرعية ،
— قد تغيب المنفعة أو تنقص أهميتها.

والجدير بالملاحظة أن أربعة عناصر تبقى حاضرة على الدوام وهي السنن والرسالة والقناة والمقام. وهكذا ، فلن تقوم بنية الاخبار ما لم تتوفر هذه العناصر الأربعة. فهي ، إذن ، عناصر ضرورية لا يُسْتَغْنَى عنها في أية عملية إخبارية. غير أنه ينبغي أن نلاحظ أيضا أن عنصرين من هذه العناصر الأربعة ، وهما السنن والرسالة ، قد يؤديان ، فضلًا عن دورهما ، دوراً آخر : إذ يقوم السنن والرسالة بدور المرسل وتقوم الرسالة بدور المتلقي.

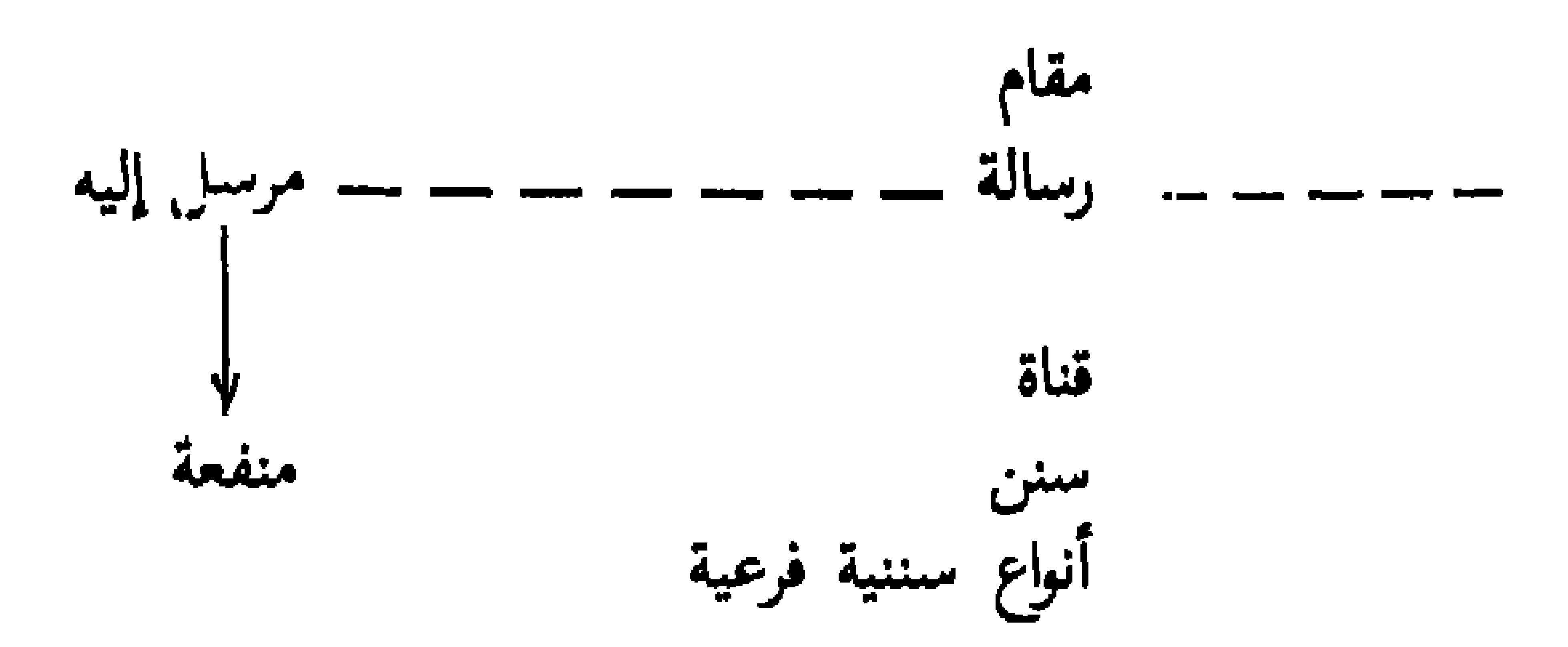
وبعد هذه الملاحظات ، يلزمنا وضع الخطاطات الاخبارية الممكنة :

الخطاطة الأولى



ملحوظة : المنفعة قد يتمتع بها المتلقي ، وهذا هو المفروض؛ وقد يتمتع بها المرسِل.

الخطاطة الثانية



الخطاطة الثالثة

مقام

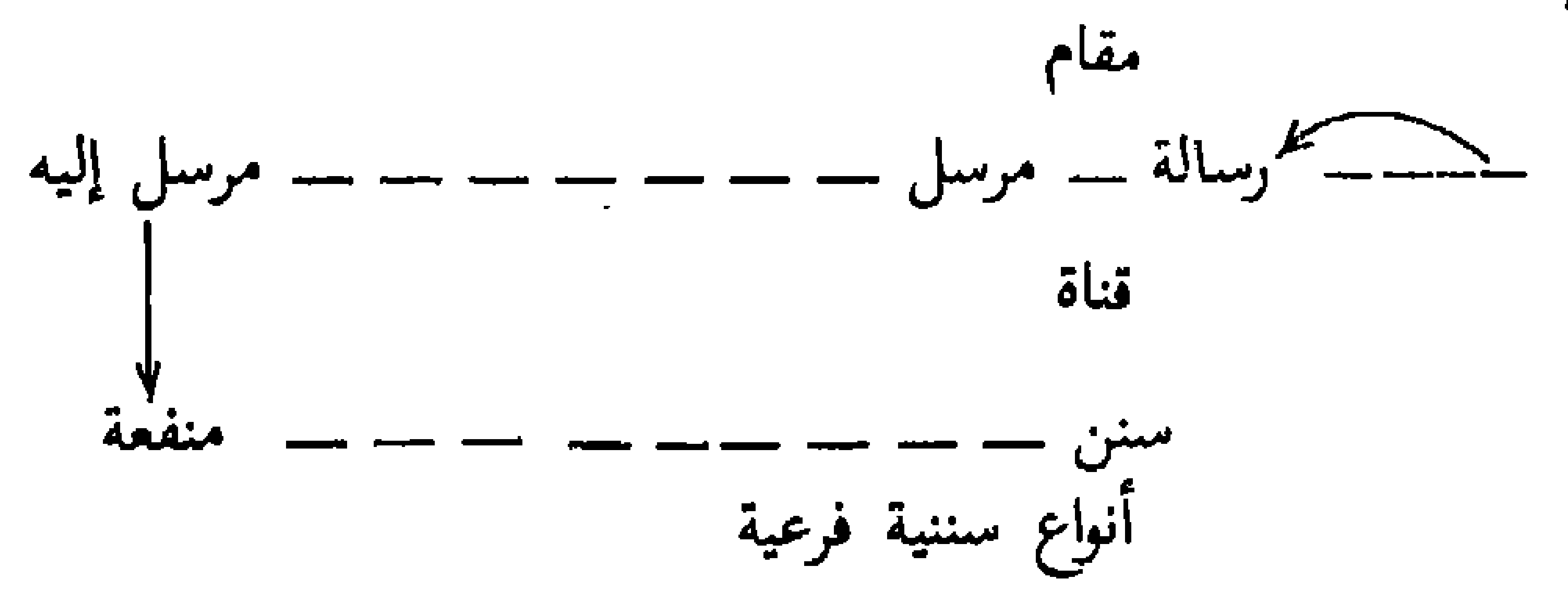
مرسل إليه — رسالة

قناة

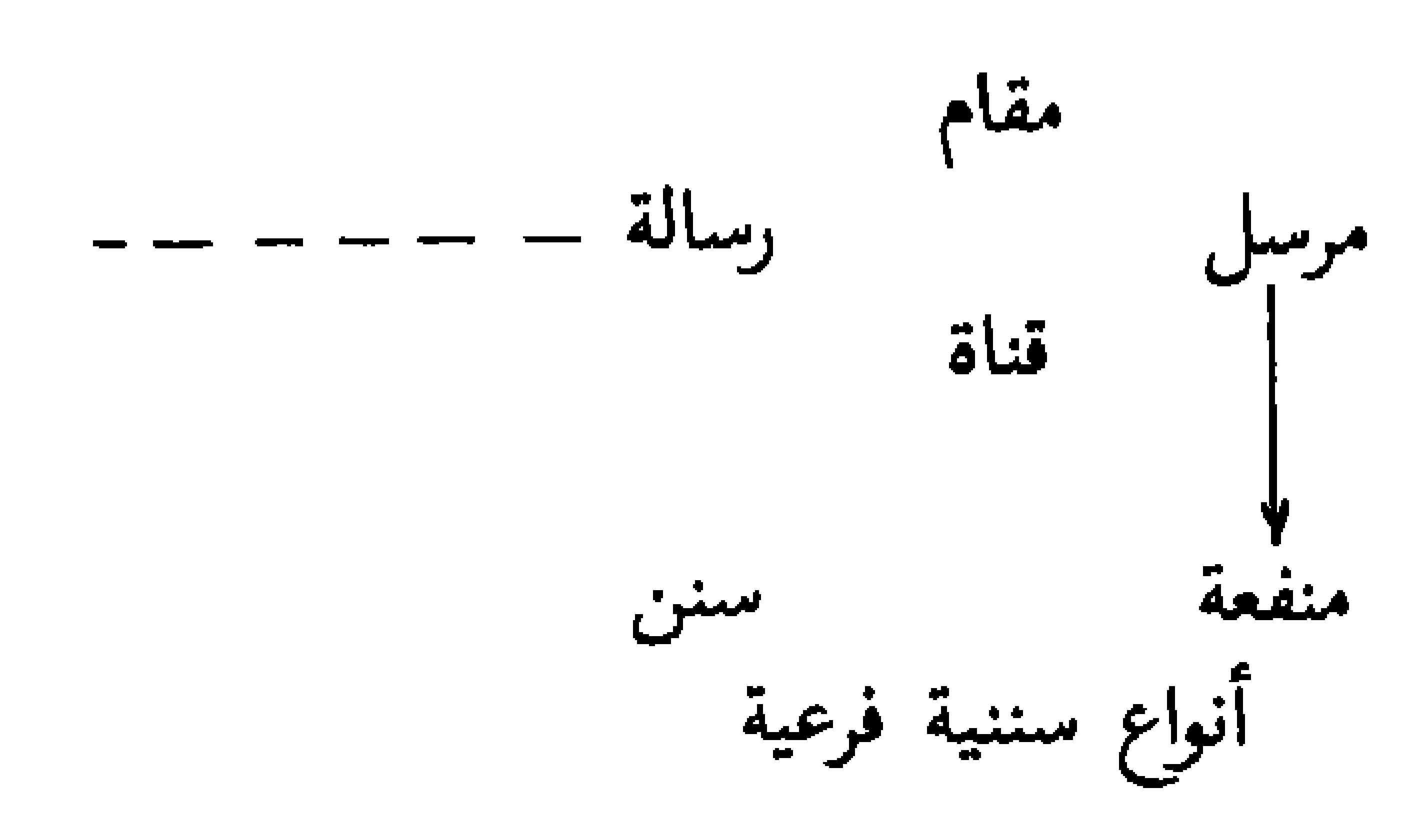
منفعة — نن (مرسل)

أنواع سننية فرعية

الخطاطة الرابعة

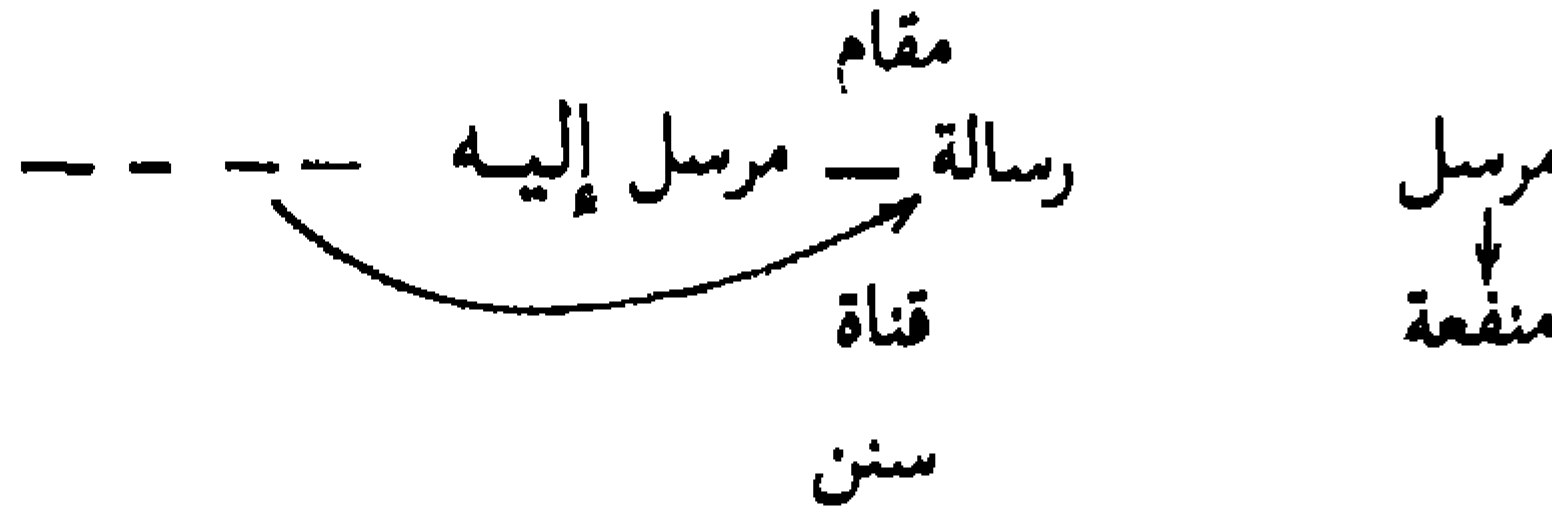


الخطاطة الخامسة



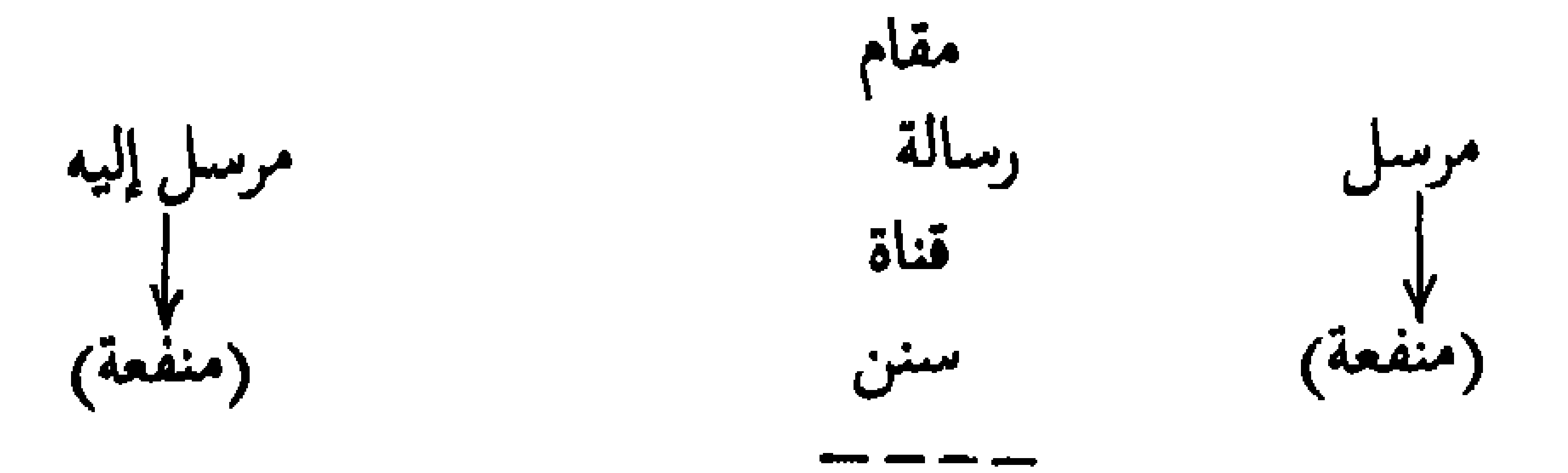
الخطاطة السادسة :





أنواع سننية فرعية

الخطاطة السابعة :



الخطاطة الثامنة :

مرسل	مقام رسالة قناة سنن أنواع سننية فرعية	مرسل إليه

ملحوظة : المنفعة متبادلة بين المرسل والمتلقي

يتبين من هذه الخطاطات الثمانية أن للاخبار بنيات مختلفة يبلغ عددها ثمان بنيات تتكون من عناصر مختلفة أو عناصر تلعب أدوارا محددة أو تلعب عدة أدوار. ورغم ذلك ، فإن الأخبار والتواصل لا يختلان.

وتأخذ هذه الخطاطات والبنيات في حسبانها التعقيد الذي يلازم عملية الأخبار والتواصل ذلك أن هذه العملية ، كما اتضح ذلك ، ليست بالبساطة التي قد نتوهمها ، وإنما هي عملية معقدة بالنظر إلى علاقات التداخل بل التمازج وعلاقات الاقصاء بين عناصر بنية الأخبار الكبرى. ومن جهة ثانية ، فإن هذه البنيات الأساسية التي وقفنا عندها تتلاءم ومختلف الأنساق الدالة سواء كانت لفظية أم غير لفظية ، وسواء كانت اجتماعية أو طبيعية.

2. التواصل و الدّلالة والبرمجة

1.2. التّواصل والدّلالة

يمكن أن ننظر إلى العمليات التواصلية من منظارين اثنين. فنعرّفها باعتبارها نقلاً للعلامة من المصدر إلى المرسل إليه : وإذا تعلق الأمر بعملية بين آلتين (من آلة إلى أخرى) ، فإنه ليست للعلامة قدرة التدليل. وفي هذه الحالة ، فإنه لا يمكننا الحديث عن الدلالة ، إلا أن لدينا نقلًا لاخبار ما. أما إذا كان المتلقي إنسانا (وليس من الضروري أن يكون المصدر أو المرسل إنسانا) ، فإن الأمر يتعلق بسيرورة دلالة لأن العلامة تثير استجابة تأويلية لدى المخاطَب (15).

وعليه ، فالتواصل الانساني لايخلو من الدلالة ، فالسنن ، كما يرى أمبرطو إيكو ، نسق دلالة ذلك أنه حينما يعوّض شيء ما ماثل في إدراك المخاطَب شيئا آخر ، فإن الأمر يتعلق بالدلالة (16).

إن التواصل ، إذن ، نقل فعّال للمعنى والأخبار ، وهو يحتوي دوما على رسالة ، وكل رسالة تتكون من دلائل ، وكل دليل يتكون من دال ومدلول. وعلى أساس التذكير بمكونات الرسائل ، يصح أن نقول مع شيرّي C.Cherry (17) : «لايوجد تواصل بدون نسق مكون من دلائل» ذلك أن كل ما يُفهمه التواصل الانساني هو عبارة عن تبادل دلائل» كما يرى روسي ــ لاندي F.Rossi-Landi (18). وبهذا لا يمكن للتواصل إلا أن يكون دالا بحيث إن هناك علاقة وثيقة بين المعنى والتواصل إذ لا يمكن أن نعرّف الكلمة الأولى إلا انطلاقا من الكلمة الثانية (19). ولربما لهذا السبب بالذات ، اعتبر شانون وويفر تعريفهما للتواصل شاملا اللغة المكتوبة والمنطوقة والموسيقى والفنون التشكيلية والمسرح والرقص ، أي أن التواصل يشمل ، عمليا ، كل السلوك الانساني (20).

يبدو ، إذن ، أنه يستحيل الحديث عن تواصل خال من سنن ومن رسالة لأن السنن والرسالة يوجدان في علاقة جدلية وثيقة. كما أن كل عملية تواصلية هي بمثابة تبادل للدلائل بين مرسِل ومرسَل إليه داخل سوق لفظية أو غير لفظية. وبعبارة أخرى ، فإنه مثلما هو مقدر علينا تبادل البضائع ، مقدر علينا أيضا تبادل الدلائل أي التواصل. بل إن المعنى لا يتحدد مالم نتواصل ، ويعني ذلك أن التواصل يحدد المعنى ويميزه. ولهذا السبب ، فلا مجال ،

(15) Eco. A Theory of Semiotics P.8

(16) نفسه. نفس الصفحة

(17) نقلا عن روسي ــ لاندي Rossi-landi : Linguistics and Economics P. 11

(18) نفس المرجع السابق ذكره. ص 9

(19) Lyons. Eléments de Sémantique P.33

(20) نفسه. ص 31

هنا ، للفصل بين التواصل والدلالة. وفي هذا المعنى ، يرى أمبرطو إيكو أن كل فعل تواصلي موجه إلى كائنات إنسانية أو محقق بينهما... يفترض نسق دلالة كشرط ضروري له (21).

وضمن نفس السياق الفكري ، يمكن أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول إن لأي سلوك إنساني معنى ، فيكون كل جزء من السلوك الانساني ، تبعا لذلك ، كما يرى روسي ــ لاندي ، تواصلا (22) ، خاصة وأن السلوك الذي لامعنى له سلوك لا وجود له بما أن الانسان يتواصل مع منظومته الاجتماعية (23).

ومن المعلوم أن كل سلوك يوجد داخل ثقافة معطاة في شكل متواليات أو تجمعات من الوحدات الثابتة والتعاقدية ، وهذا ، بالضبط ، لأن هذه الوحدات ذات معنى (24).

وإذا كانت الثقافة تحدد السلوك ، وإذا كان السلوك الانساني سلوكا تواصليا ، فإن التواصل هو العملية المركزية والمكوِّنة لكل ثقافة كما يرى فرانز بواس Franz Boas (25). ويجدر بنا ، في هذا الباب ، أن نشير إلى أن السلوك الانساني هو حصيلة للعمل الانساني المنجز عبر مختلف المراحل التاريخية لتطور الانسان. ومن ٱلْبَيِّنِ أن هذا العمل الانساني السابق الذي يستخدم السنن هو ، قبل كل شيء ، عمل اجتماعي وجماعي بحيث لا يصبح أي فرد عضوا في الجماعة إلا في الحالة التي يقبل فيها ما أنتجته تلك الجماعة ، كما لا يصبح عضوا في هذه الجماعة إلا في الحالة التي يعرف فيها تلك الانتاجات (26). وبعبارة أخرى ، إن الانسان ينتمي إلى نسق دلالي خاص ، وهو لا يكتسب التعلم والاستعمال إلا عندما يصير جزءا من شبكة الأنساق الدلالية التي توجد في جماعة بشرية معينة وتعمل فيها.

ولعل ذلك يعني أن التواصل اللفظي وغير اللفظي يتوقف ، على وجه الخصوص ، على مورفولوجية سلوكة مشتركة. يقول روسي ــ لاندي في هذا المعنى : «إن التواصل بنوعيه اللفظي وغير اللفظي يتوقف على مورفولوجية سلوكية مشتركة متوفرة فينا لأننا ، في الحقيقية ، ننتمي ، بصورة عامة ، إلى أنساق دلالية واحدة» (27) ، أي تلك الأنساق التي يندمج فيها كل فرد منا منذ ولادته.

2.2. البرمجة

إن مختلف هذه الأفكار تقودنا الى النقطة المحورية في تفكير روسي ــ لاندي وهي فكرة «البرمجة» programmation. ذلك أن التواصل ، عنده ، إنجاز للبرامج ، فهو يقول في

(21) La structuse absente P.9
(22) نفس المرجع السابق ذكره. ص 24
(23) نفسه. ص 16
(24) نفسه ص 26
(25) نقلا عن روسي ــ لاندي. ص 24
(26) نفسه ص 27
(27) نفسه ص 28

هذا الباب : «إن القول بأن كل جزء من السلوك هو سلوك له معنى يناسب ، إذن ، القول بأن كل جزء من السلوك هو برنامج في حالة التحقق وإنجاز لبرنامج قد أُعِدَّ سلفا. ففي كل تفاعل أي في كل عملية اجتماعية يؤثر خلالها فردان أو أكثر على بعضهم البعض أو تؤثر خلالها جماعات على بعضها البعض بصفة متبادلة بواسطة أنماط مختلفة من الرسائل ، فإنه يمكن للبرنامج الذي يسند هذا التفاعل أن يُشَخِّص (يُفَرِّد). ويقدم البرنامج ، في آن واحد ، وصفة للأدوار الفردية أو الجماعية وللعلاقات التي أقيمت بين منجزي البرنامج على اختلافهم» (28). ويقول أيضا : «وقد تم الدفاع عن اعتبار العوامل الطبيعية مستقلة أحيانا عن عملية التشكل الاجتماعي ، مع بقايا طبيعية أو وضعية. وقد تم الدفاع عن عملية التشكل الاجتماعي ، مع بقايا روحية ، باعتبارها كانت مجموعة من العمليات الابداعية ، أي أن هناك فجوة بينها وبين الطبيعة. أما الآن ، ولأن أنساق الدلائل الاجتماعية هي ، بالتحديد ، نتاجات إنسانية ، فإنه ، ليس ممكنا ، بالتأكيد ، العثور عليها في الطبيعة كأنساق منفصلة عن الاجتماعي؛ ومن جهة أخرى ، ولأنها تعمل كآلات مكيِّفة لسلوكنا ، فإنه ليس من الممكن أيضا العثور عليها داخل عمليات نمط إبداعي معين. إن التناقض ينتهي ويشرع الطبيعي في الالتحاق بالاجتماعي حينما نتأكد من أن الانسان نفسه هو نتاج لعمله (...). وفي رأيي ، فإن تلك هي أهم وسيلة لادماج مفهوم التواصل باعتباره إنجازا لبرامج بواسطة أنساق دلائل اجتماعية لفظية كانت أم غير لفظية» (29).

إن السلوك الانساني ، إذن ، بمثابة تحقيق لبرامج ذلك أن الفرد الانساني ليس سوى جزء من تنظيم واسع ، وأنه حينما ينشأ وينمو يجد أمامه أشياء جاهزة وتجارب محققة ، وبالتالي ، فإن سلوكه سلوك يتمحور على شيء سابق في الوجود ويتعلق به ، وهو شيء يوجهه ويتحكم فيه. وبذلك يكون السلوك مبرمجا كما يكون التواصل مبرمجاً.

ويترتب عن مثل هذا التصور أن الأنساق الدلالية تحتوي على برامج من السلوك وأن وراء كل عملية اجتماعية يشترك فيها أفراد أو جماعات برنامجا من شأنه أن يحدد الوظائف التي يقوم بها الأفراد والجماعات وأن يُسَنِّنَ Codifier العلاقات بين هؤلاء الأفراد أو هاته الجماعات. كما أن الادراك الحسي للعالم المادي لدى الانسان إدراكٌ مبرمج بواسطة الأنساق الدلالية اللفظية وغير اللفظية التي يتواصل بها مع بني جنسه ، إنه ، على وجه التدقيق ، إدراك تبرمجه الثقافة.

ويعني ذلك أن الانسان ، حينما ينجز أي برنامج ، يكون مزودا بتعليمات. لذا يمكن اعتبار إنجاز البرنامج تواصلًا. وعلى هذا الأساس يكون محكوما على الانسان بأن يتعلم كيف

(28) نفسه ص 26
(29) نفسه ص 25 — 26

ينجز البرامج ، وتَعَلُّمُ إنجاز البرامج يجعل الانسان يتعلم كيف يتواصل ويساهم في عملية إعادة الانتاج الاجتماعي. بل إن الانسان ، كما يرى إيفانوف Ivanov ، يصبح جزءا من البرامج التي تحدد سلوكه بطريقة آلية أي بطريقة لا واعية بالنسبة إلى ما يتبقى من حياته (30).

إن التفاعلات بين الأفراد وداخل الجماعة لا يمكن لها إلا أن تكون مبرمجة لأن السلوك الانساني سلوك قابل لأن يُفْهِم وقابل لأن نتنبأ به (31). هكذا ، تبدو عملية التفاهم بين الأفراد عملية لا تتحقق إلا وِفقَ برامج معينة ، ويتضح أن الانسان لايصبح عضوا في جماعة معينة إلا في الوقت الذي يكون فيه فاعلا داخل أنساق دلالية مختلفة إلى درجة يصح معها القول ، كما أكد ذلك روسي ــ لاندي ، بأن هذه الأنساق الدلالية لن توجد بدوننا نحن الأفراد الذين نَفْعَلُ في العمليات التواصلية ، إلا أن العكس صحيح أيضا ، إذ لا يمكن أن نوجد كأفراد ما لم تكن هناك أنساق دلالية نكون نحن منجزيها (32).

لكن ، أيعني ذلك أن للبرامج سلطة قاهرة تنتفي معها حرية الانسان ؟ ألا نشعر ، ونحن نقوم بإنجاز برامج ، بأننا عبيدٌ لقواعد محددة ؟

يجيب روسي ــ لاندي عن ذلك معتبراً الحرية ابتكاراً إنسانيا ، وإذن ، فهي ذاتها ترتكز على التواصل أي ترتكز على البرامج : فإذا انعدمت البرامج ، فإننا لن نجد أنفسنا حينئذٍ ، على وجه الاطلاق ، في أي شرط من تلك الشروط التي نسميها حرية ، بل إننا لن نجد أنفسنا قادرين على إدماج الحرية الجديدة في التاريخ. والتحرر ، في حقيقة أمره ، عبارة عن توسيع للتخطيط الانساني ، والتخطيط هو الاستعمال الواعي للبرامج. وعلاوة على ذلك ، فإن البرامج نفسها يمكن لها أن تتنبأ بحَجْم الحرية في شكل اختيارات أو تنوعات مشروعة (33).

إن الأنساق الدلالية نتاجٌ لعمل الانسان ، والانسان ذاته من نتاج عمل نفسه. وتقوم هذا الأنساق بوظيفة تواصلية وبترسيخ للسلوك والثقافة. ومن ثمة ، فهي شبكة تؤطر عمل الانسان وممارسته الاجتماعية مهما اختلفت أنواعها وأبعادها. إلا أن الانسان ، رغم ذلك ، فاعلٌ فيها. ويعني ذلك أنه يتموقع بين قيد الحرية وقيد الضرورة ، إذ لا بد من برامج لتتحقق الحرية ذلك أنّ انتفاء البرامج يعني السقوط في الفوضى. وعليه ، فإن الحرية تعتمد ، في جوهرها ، على البرامج. ومن جهة ثانية ، فإن للانسان تخطيطا قابلا لأن يوسَّع مجاله بفضل حضور التحرر ، إلا أن ذلك التخطيط مرتبط هو ذاته بالبرامج لأنه الاستعمال الواعي لها. فبدون حضور الوعي أثناء إنجاز البرامج يُفْتَقَد التخطيط الانساني إذ لا يمكن أن نُخطط بدون ضوابط وقيود.

(30) نقلا عن روسي ــ لاندي ص 27
(31) نفسه نفس الصفحة
(32) نفسه. ص 28
(33) نفسه. ص 28 ــ 29

لا شك أن مثل هذه الآراء حول علاقة التواصل بالدلالة وبالبرمجة تدفعنا الى اعتبار المدلول وحدة ثقافية ليس إلا ، كما يرى ذلك أمبرطو إيكو (34). ومن جهة أخرى ، فإن الاعتراف بوجود هذه الوحدات الثقافية يعني فهمَ اللغة باعتبارها ظاهرة اجتماعية (35). بل إن ذلك يعني اعتبار كل الأنساق ظواهر اجتماعية.

(34) La Structure absente P.64

(35) نفسه. نفس الصفحة.

الفصل الثـاني

الأنسـاق الدّلاليـة

1. تعريف النّسق الدال

يعرِّف لوكومتسيف النسق السيميوطيقي باعتباره «لعبة دلائل» ـــ لعبة نمط من الدلائل أو عدة أنماط ـــ مضاعفة بنسق من القواعد التي تتحكم في تأليفها في اللحظة التي يُعَدُّ فيها نص سيميوطيقي (1).

بينما ينطلق روسي ـــ لاندي في تعريفه للنسق الدلالي من اعتبار التواصل منقسما الى عدة قطاعات تواصلية ، ويُسَمِّي كل قطاع تواصلي «نسق دلائل». وأنساق الدلائل ، عنده ، مجموعة جدلية مكونة من أنواع سننية ومن رسائل تتحقق في الواقع بين مرسلين ومتلقين في ظروف ملائمة. وتحتوي هذه الأنساق ، في طيها ، على قواعد استعمالها الخاص (2).

أما كرانجر G.G.Granger فيستعمل ، بدل النسق السيميوطيقي ونسق الدلائل ، النسقَ الرمزي. والنسق الرمزي مجموعة من الدلائل المعطاة فعليا أو القابلة فعليا للبناء. ويؤكد هذا التعريف ، في رأيه ، الطابع المغلق لمجموع دلائل النسق. أما إذا بقيت قائمة النسق مفتوحة فإن الأمر لا يتعلق بنسق رمزي وإنما بتجميع لدلائل. غير أن هذا الانغلاق لا يلغي انفتاحا ما للنسق إذ من الممكن استحداث دلائل. إلا أن مثل هذا الاستحداث يخضع لبعض قواعد البناء التي تُسَلِّمُنَا الى قيد قابلية البناء الفعلية (3).

إن نسق الدلائل ، إذن ، مجموعة من الدلائل تنسج فيما بينها مجموعة من العلاقات الاختلافية والتعارضية حتى تقوم بتأدية وظائف دلالية متميزة بين مرسل ومتلق. ولتأدية هذا

(1) Quelques fondements de la Sémiotique générale in systèmes de signes ouv. collectif. P. 237

(2) Linguistics and Economics P.10 —11

(3) Langages et épistémologie P.103

الدور المتمحور حول نقل رسالة معينة لابد من أن تخضع هذه الرسالة لقوانين وقواعد تركيبية (= تأليفية) وفق شروط مقامية خاصة.

ومن جهة ثانية ، فإن هذه المجموعة من الدلائل المعطاة فعليا لابد ، لكي تشكل نسقا ، من أن تكون مغلقة؛ إذ لا ينبغي أن تختلط بها دلائل أخرى ذات طبيعة تغاير طبيعتها ــ وبالتالي لا تقيم معها أية علاقة داخلية ــ وذات قواعد تأليفية مغايرة لقواعد تأليف الأولى.

وإذن ، فالدلائل تُرتب داخل أنساق معينة متغايرة مغلقة مثل نسق الكتابة ونسق الموسيقى ونسق الرقص... الخ. إلا أن انغلاق النسق لا يعني ، بأي حال من الأحوال ، عدم إمكان صنع دلائل أخرى من الممكن إدراجها ضمن نفس النسق شريطة أن يخضع صنعها لنفس القواعد التي بُنِيت على أساسها دلائل النسق المعني. وما عدا هذا الامكان ، فإن قائمة الدلائل ينبغي أن تُغْلَق وإلا فإننا لن نكون بإزاء نسق وإنما بإزاء ركام من الدلائل التي تم تجميعها دون أي احترام لقواعد استعمالها الخاص بها.

2. انقسام الأنساق الدّلالية

تنقسم الأنساق الدلالية الى قسمين كبيرين : أنساق دلالية طبيعية وأنساق دلالية اجتماعية. والأنساق الدلالية الطبيعية هي تلك الأنساق التي توجد في الطبيعة. وتتسم هذه الأنساق بكونها غير مؤسسية إلا أن الانسان وظفها داخل مملكة الدلائل أي أنه أسند إليها دلالات مخصوصة. أما الأنساق الدلالية الاجتماعية فهي «في نفس الآن الأنْسَنَة وكل ما نتج عنها أي أنها ما قبل التاريخ الانساني والتاريخ الانساني منظورا إليه من زاوية السيميوطيقا العامة» (4). إن الأنساق الدلالية الاجتماعية هي تلك الأنساق التي تتميز بكونها مؤسسية وبكونها من نتاج عمل الانسان.

وتنقسم الأنساق الدلالية الاجتماعية إلى أنساق دلالية اجتماعية لفظية Verbal وأنساق دلالية اجتماعية غير لفظية. والأنساق الدلالية اللفظية هي : «تلك الأنساق التي لها لغات ولها خصوصياتها المتنوعة وإعدادات مثل الأنواع السَّنَنِية. وتقوم هذه الأنواع السننية على التمييزات التي يحدثها الانسان في مادة الصوت» (5). والمقصود باللغات ، عند روسي ــ لاندي ، الحالات الخاصة للكلام أي للقدرة الانسانية على استعمال أنواع سننية متسقة للتلفظ بأصوات قصد أغراض تواصلية وتعبيرية عادية (6). ومن الواضح ، أن روسي ــ لاندي يقصي من هذا النوع من الأنساق اللغة الشعرية واللغات التقنية واللغة الطقوسية واللغات الايديولوجية المختلفة ولغة الرياضيات. وعلاوة على ذلك ، فإن مفهوم الأنساق اللفظية ،

(4) Linguistics and Economics P. 12

(5) نفسه ص 13

(6) نفسه. نفس الصفحة.

عنده ، لا يأخذ بعين الاعتبار التمايز بين ماهو منطوق وما هو مكتوب (7) ، فهذا المفهوم يشملهما معا.

أما الأنساق الدلالية الاجتماعية غير اللفظية فهي تلك التي «لا تستعمل أنواعا سننية قائمة على أصوات متلفظ بها ، ولكنها تستعمل أنواعاً سننية قائمة على أنماط أخرى من الأشياء ، هاته الأشياء الأخرى التي سيُسميها بالأجسام bodies هي إما أشياء توجد قبليا في الطبيعة وإما أن الانسان أنتجها لغايات أخرى ، وإما أنها أنتجت بغرض أن تستعمل بوصفها دلائل أو أنها استعملت باعتبارها دلائل في نفس الفعل الذي نتجت فيه» (8).

وتتكون هذه الأنساق الدلالية غير اللفظية من :

1 — حركات الأجسام Kinesic وأوضاع الجسد postural : التواصل بالاشارات ، تعابير الوجه وتعابير أخرى وأوضاع الجسد...

2 — الاشارات الدالة على القرب proxemic المتعلقة باستعمال الانسان للمكان.

3 — اللمسي Tactile والشمي Olfactory والذوقي gustative البصري visual والسمعي auditory الى درجة نستطيع فيها إبعاد أنساق دلالية غير لفظية أخرى قائمة أيضا على السمع والبصر.

4 — الشيئي objectual أي الأنساق القائمة على أشياء يروضها الانسان وينتجها ويستعملها : ثياب ، حلي ، زخارف ، أدوات مختلفة ، آلات ، بناءات من كل نوع ، موسيقى ، فنون رمزية..

5 — المؤسسي Institutional : كل أنواع التنظيمات الاجتماعية ، وبالتحديد كل الأنساق المتصلة بروابط القرابة والطقوس والأعراف والعادات والنظم القضائية والديانات والسوق الاقتصادي... (9).

وبخصوص هذه الأقسام ، يلاحظ روسي — لاندي أن الأقسام الثلاثة الأولى (حركات الأجسام... والاشارات الدالة على القرب... واللمسي والشمي والذوقي والسمعي والبصري) تحيل على جسم الانسان أي أنها تحيل على العضوية الانسانية. أما الأقسام الباقية ، فتحيل على أشياء خارجة عن العضوية الانسانية.

ونخلص من هذا التمييز إلى أن الأقسام الثلاثة الأولى أنساق دلالية عضوية وأن الأقسام الباقية أنساق دلالية أداتية Instrumental ، ذلك أن الانسان ، في الحالة الأولى ، يقوم بسلوك معين ، أما في الحالة الثانية ، فإنه يقوم بسلوك بواسطة شيء (10).

(7) نفسه. نفس الصفحة.
(8) نفسه. ص 13 — 14
(9) نفسه. ص 14
(10) نفسه. نفس الصفحة.

أما أمبرطو إيكو ، فإنه يرى في الأنساق الدلالية ، مهما كانت أقسامها ، ثمانية عشر نسقا. وقد انطلق ، في هذا التصنيف ، من أنساق التواصل التي تبدو ، في الظاهر ، أكثر «طبيعة» وأكثر «عفوية» ـــ أي «أقل ثقافيا» ـــ وصولا الى العمليات الثقافية الأكثر تعقيدا. وهذه الأنساق هي :

1 ـــ سيميوطيقا الحيوان Zoosémiotique ويخص الأمر السلوكات المتصلة بالتواصل داخل الجماعات غير الانسانية ، وبالتالي الجماعات غير «الثقافية».

2 ـــ العلامات الشمية Olfactifs كالعطور مثلا.

3 ـــ التواصل اللمسي Tactile كالقبلة والصفعة...

4 ـــ سنن الذوق ويتعلق الأمر بممارسة الطبخ.

5 ـ العلامات المصاحبة لما هو لساني para-linguistique : كأنماط الأصوات في ارتباطها مع الجنس والسن والحالة الصحية... ومثل العلامات المصاحبة للغة كالكيفيات الصوتية (علو الصوت ، مراقبة العملية النطقية...) وكالتصويتات (الأمزجة الصوتية : الضحك والبكاء والتنهدات..).

6 ـــ السيميوطيقا الطبية : علاقة الأعراض بالمرض.

7 ـــ حركات الأجسام Kinésique والاشارات الدالة على القرب proxémique ويتعلق الأمر باللغات الاشارية gestuels.

8 ـــ الأنواع السننية الموسيقية.

9 ـــ اللغات المُشَكْلَنَة formalisés مثل الجبر والكيمياء وسنن الشفرة Morse....

10 ـــ اللغات المكتوبة والأبجديات المجهولة والأنواع السننية السرية.

11 ـــ اللغات الطبيعية (مثل اللغة العربية والفرنسية والانجليزية)...

12 ـ التواصل المرئي Visuelle : مثل الأنساق الخطية واللباس والاشهار...

13 ـــ نسق الأشياء : مثل المعمار وعامة الأشياء.

14 ـــ بنيات الحكي.

15 ـــ الأنواع السننية الثقافية مثل آداب السلوك والتراتبيات والأساطير والمعتقدات الدينية القديمة...

16 ـــ الأنواع السننية والرسائل الجمالية : علم النفس والابداع الفني ، والعلاقات بين الأشكال الفنية والأشكال الطبيعية...

17 ـــ التواصل الجماهيري : مثل علم النفس وعلم الاجتماع والبيداغوجيا ومفعول الرواية البوليسية والأغنية.

18 ــ الخطابة : La rhétorique (11).

وإذا كان أمبرطو إيكو قد فصل في الأنساق الدلالية وأفاض في تفريعاتها ، فإن مدرسة طارتو Tartu السوفياتية قد اقتصرت على تقسيم هذه الأنساق إلى قسمين كبيرين هما : أنساق مُنَمْذِجة أولية Systèmes modelants primaires وهي الأنساق اللفظية اللسانية ، وأنساق مُنَمْذِجة ثانوية Systèmes modelants secondaires مبنية على الأنساق الأولى. وتُصنَّف ضمن هذه الأنساق الثانوية الدين (والأساطير) والشعر (وعموما الفنون) والملامح المميزة للثقافة (12).

لقد وقفنا عند منظورات ثلاثة تنقسم بموجبها الأنساق الدلالية إلى أقسام تختلف من منظور الى آخر. فبم تتميز هذه المنظورات الثلاثة وهل تختلف عن بعضها البعض اختلافا عميقا ؟

ينطلق روسي ــ لاندي في تقسيمه للأنساق الدلالية من مفهوم القيمة Valeur ، ذلك أن كل ما له قيمة ــ وبالتالي كل ماله معنى ــ هو دائما نتاج لعمل الانسان إذ القيمة شيء قد أدخله الانسان الى العالم ولا زال يدخله إليه (13). ووفق ذلك ، فالأنساق الدلالية ، كيفما كانت أقسامها ، ذات قيمة وذات معنى. وإذا صح ذلك ، فهي جميعا نتاج لعمل الانسان فكيف ، والحالة هذه ، يحق لنا الحديث عن أنساق دلالية طبيعية ؟

يمثل روسي ــ لاندي للأنساق الدلالية الطبيعية بالسنن النشوئي وبأنواع سننية أخرى موجودة في الطبيعة بواسطة التأويل الذي يقوم به الانسان مثل سَنَن البحر والملاحة «المكتوب بواسطة أشياء» لكن الملاحين هم الذين يستعملونه (14). وقد دفع به هذا الأمر الى التساؤل : بأية طريقة يمكننا أن نحدد مملكة الدلائل داخل مملكة الطبيعة ؟ ثم يجيب بأنه من غير اللائق الحديث عن مجرد الطبيعة من خلال كثافة الأنواع السننية والمعاجم والايديولوجيات مثلما نفعل حينما نتحدث عنها في واقعنا.

لذلك يجب علينا أن نحدد مملكة الطبيعة داخل مملكة الدلائل. وإلى جانب ذلك ، يعتبر روسي ــ لاندي أن لهذا التساؤل مظهرا مهما ومعقدا يمكن صياغته في شكل السؤالين التاليين : هل يجب ، أيضا ، اعتبار الأنساق الدلالية المضمرة في العلاقات الحيوانية في تجمعاتها أنساقا دلالية طبيعية لاغير ؟ وهل تكوِّن هذه التجمعات الحيوانة مجتمعات بالمعنى الصحيح للكلمة ؟ (15).

(11) La structue absente P.14 —19

(12 Szepe et Voigt. Alternatives sémiologiques , in Recherches Internationnales à la lumière du marxisme N° 81, p. 15

(13) Linguistics and Economics P.5

(14) نفسه ص 12

(15) نفسه. نفس الصفحة

إن روسي ـــ لاندي يرى أن ما ينبغي القيام به يكمن في تحديد الطبيعة داخل مملكة الدلائل لا العكس لأن مظاهر الطبيعة غير دالة في ذاتها ، وإنما تدل حالما تُنقل الى عالم الانسان أي حينما يضفي عليها الانسان معاني ودلالات. وبذلك فهي لم تعد طبيعية خالصة وإنما صارت إنسانية أي اجتماعية بحيث يمكن اعتبار الألسنة مثلا ظاهرة إنسانية ما قبل ـــ تاريخية وتاريخية. وبالاضافة الى ذلك ، فإن الانسان قد أصبح يستعمل هذه المظاهر الطبيعية كدلائل وأصبح يتبادل بها مع بني جنسه. وإذن ، فإن هذه المظاهر الطبيعية قد أسندت إليها مجموعة من الوظائف التي لم تكن لها من قبل. لقد أضحت أدوات إنتاج إنسانية إلا أن المادة التي تتكون منها هي الطبيعة. غير أن الانسان ، من خلال نشاطه الواعي أو غير الواعي ، هو الذي جعل منها دلائل. ويعني ذلك أن مثل هذا العمل يندرج ضمن سيرورة تغيير الانسان للطبيعة وترويضها والتحكم فيها خدمة لأغراضه ومصالحه الحيوية. والخلاصة هي أن هذا النوع من الأنساق الدلالية هو نتاج لعمل الانسان ، فتلتحق بذلك الأنساق الدلالية الطبيعية بالأنساق الدلالية الاجتماعية.

وإذا سلمنا بصحة ذلك ، فإن التقسيم الأسلم للأنساق الدلالية ، باعتبارها جميعا أنساقا دلالية اجتماعية ، هو ذلك الذي يعتبرها صنفين : صنف الأنساق الدلالية اللفظية وصنف الأنساق الدلالية غير اللفظية.

والأنساق الدلالية اللفظية هي تلك الأنساق التي تتخذ من اللغات الطبيعية أداة لتكوين الدلائل ، أو تتكون من دلائل لسانية مكتوبة أو منطوقة أي أن سَنَنها يعتمد على الأصوات الملفوظة أو على الحروف الخطية التي هي علامات لتلك الأصوات. ويترتب عن ذلك تقسيم للأنساق الدلالية اللفظية الى قسمين : أنساق دلالية لفظية منطوقة وأنساق دلالية لفظية مكتوبة.

أما الأنساق الدلالية غير اللفظية فهي تلك الأنساق التي تستخدم أنواعا سننية غير معتمدة على الأصوات أو على الحروف الخطية. وإنما تستخدم أنواعا سننية معتمدة على أنماط أخرى من الأشياء وهي موجودة في الطبيعة أي غير مصنوعة من قِبل الانسان ، وأنماط من أشياء أنتجها الانسان لخدمة أغراض أخرى غير نقل الدلالة مثل اللباس مثلا الذي صُنع ليقي الانسان من البرد والمطر وغيرهما ، وأنماط من أشياء أنتجها الانسان لتقوم في أساسها بوظيفة نقل المعاني والدلالات مثل علامات المرور والملاحة.

والجدير بالملاحظة أن هذه الأنساق الدلالية غير اللفظية تنقسم ، بدورها ، إلى أنساق دلالية عضوية ، أي تلك التي تتخذ من جسم الانسان دلائل ذلك أن الانسان يستخدم أعضاء من جسده بل جسده وذاته لاحداث أنواع من السلوكات المعينة ، وإلى أنساق دلالية أداتية أي تلك التي تتخذ من غير جسم الانسان دلائل بحيث يستخدم الانسان وسائط معينة لنقل الاخبارات والمعاني.

وتتميز هذه الأنساق الدلالية الاجتماعية ، كيفما كان نوعها ، بكونها مؤسسية أي قائمة على نوع من الاتفاق والتواضع لأنها جميعا من إنتاج عمل الانسان. غير أن الأنساق الدلالية الاجتماعية متفاوتة فيما يخص كونها من إنتاج عمل الانسان. إذ هناك من لا يعتبر الأنساق الدلالية غير اللفظية الشيئية كالثياب والحلي والزخارف أنساقا دلالية اجتماعية ، بل إن جزءا من الأنساق الدلالية المؤسسية لا يعتبر بعدُ أنساقا دلالية اجتماعية. وفضلا عن ذلك ، فإن الأنساق الدلالية العضوية ليس معترفاً بها بعدُ كأنساق اجتماعية. ويعود ذلك ، في رأي روسي ــ لاندي ، إلى أنها لا توجد في الطبيعة وأنها بدل ذلك نتاجات عمل الانسان. (16).

إن مرد مثل هذا الاختلاف ، فيما يراه روسي ــ لاندي ، يكمن في مفهوم غامض للعمل أو في حصر مفرط لمفهوم العمل. فإذا لم نقصد بالعمل غير سلوك الصانع الذي يغير أشياء متنوعة ويؤلف فيما بينها (مثلا ، دولب ، غِرَاء ، مسامير) بواسطة أدوات والذي يمدنا بشيء جديد باعتباره إنتاجا (طاولة مثلا) ، ثم نظرا لخاصيتها الكامنة في كونها نتاجا للعمل ، فإنها ستنتمي الى الأنساق الدلالية الشيئية لاغير ، ومن الممكن ألا تنتمي إليها كلها (17). واضح أن روسي ــ لاندي يُوسِّعُ من مفهوم العمل ويميزه عن مجرد النشاط البسيط : «إننا ، باعتبارنا أفراداً ، نقوم بعمل... إلا أن انفاقنا لقوة العمل يمكن أن يسبِّب نتاجات أي أن يخلق معنى ، ولابد من وجود آلات يُعتمد عليها لانجازه وأدوات لتطبيقها وإجراءات لانفاقها. وكل هذا توفره لنا بالفعل وتفرضه علينا الأنساق الدلاليه الاجتماعية (18). وعلاوة على ذلك ، فإن لعبة الشطرنج من جهة ، وسنن اللغة ، من جهة أخرى ، يوفران معا أمثلة جيدة لبرامج ذات مقدار معين من الحرية. إننا أقل وعيا بسنن اللغة بالنظر إلى سنن الشطرنج لأن الأول أكثر تعقيدا ولأن اللغة ضرورية بينما الشطرنج غير ضروري. وفضلا عن ذلك ، ومع أن اللغة نتاج إنساني ، فإنها لم تخترع ، بالتأكيد ، بنفس المعنى الذي اخترع به الشطرنج واخترعت به باقي اللعَب. إن الأنواع السننية التي تحظى بأقل وعي لأنها لاتزال أقل شرطية هي تلك الأنواع السننية غير اللفظية التي تُمارَسُ بوراثية عتيقة لتطور ليس اجتماعيا فحسب وإنما هو تطور بيولوجي أيضا» (19).

ولوعدنا إلى أولى الفترات من الأنسنة «لوجب علينا أن نفترض بأن البرامج السلوكية من المجموعة غير اللفظية قد بدأت ، في ذلك الوقت ، وبشكل مبكر ، في التشكل والتعلم والانتقال من جيل الى آخر بصفة لاواعية. إن للخطاب اللفظي الذي يصاحب ، دوما ، هذه

(16) نفسه. ص 14 ــ 15

(17) نفسه ص 15

(18) نفسه ص 28

(19) نفسه ص 29

البرامج خاصية مميزة تكمن في عدم أخذها بعين الاعتبار أو بالأحرى لايساهم في إخفائها (20).

إن كل السلوكات حصيلة لنتاج عمل الانسان الواعي منه وغير الواعي ، إنها حصيلة عمل جماعي واجتماعي. فالطفل منذ ولادته ينتج الدلائل غير اللفظية ويستهلكها ويتبادلها قبل أن ينتج الدلائل اللفظية وقبل أن يستهلكها ويتبادلها. هكذا تلازمنا عملية الأَنْسَنَة البيتية في كل ما نقوم به.

إن الانسان ، وهو ينجز مثل هذه البرامج ، يماثل الآلات الأوتوماتيكية. كما يستحيل عليه تجنب استعمال الأنساق الدلالية اللفظية والأنساق الدلالية غير اللفظية خاصة منها تلك التي تشكلت قبل مجيء الانسان الى الوجود. ومثل هذا مقبول في مجال الأنساق الدلالية غير اللفظية العضوية ومجال الأنساق الدلالية المؤسسية والشيئية.

إنه مما لاشك فيه أن كل هذه السلوكات غير اللفظية التي تحمل مَعَانِيَ ودلالات لاتصدر إلا عن برامج وعن تفاعلات مبرمجة بين الانسان والبرامج. ويعني هذا أنه ينبغي رد الاعتبار لمختلف الأنساق الاجتماعية غير اللفظية واعتبارها اجتماعية مثل الأنساق الدلالية اللفظية مادامت تساهم بفعالية في تشكيل جوهر حياتنا الاجتماعية كلها. بل إن الأشياء «لغة» وخاصة منها أشياء وسائل الانتاج.

أما المنظور الثاني ، فهو منظور أمبرطو إيكو الذي يصنف الأنساق الدلالية جميعها اعتمادا على معيار ثقافي محض. فالأنساق جميعها أنساق ثقافية تُرَتَّب انطلاقا من الأنساق الأقل ثقافيا إلى الأنساق الأعقد ثقافيا. ومن الملاحظ هنا أن الأنساق الطبيعية والعضوية لاتشكل صنفا خارج الثقافي. وبذلك ، فهي نتاج ثقافي للانسان ، إلا أنه نتاج ثقافي بسيط وعفوي. أما الأنساق الأعقد ثقافيا فتوجد في قمتها الخطابة ثم التواصل الجماهيري ثم الابداع الفني ثم الأنواع السننية الثقافية. وما بين هذين الصنفين من الأنساق توجد أنساق ثقافية ما عدا السلوكات الحيوانية لأن الحيوانات جماعات غير ثقافية إلا أنها اندمجت في المحيط الثقافي للانسان.

أما بخصوص المنظور الثالث ، وهو منظور مدرسة طارتو ، فإنه ينطلق من التمييز بين ماهو لغوي أساساً وبين ماهو غير لغوي. إننا نصوغ العالم وفق مجموعتين من الأنساق ، المجموعة الأولى هي اللغات الطبيعية وهي أكثر الأنساق دقة في صياغة العالم ، والمجموعة الثانية لاتصوغ العالم إلا على أساس المجموعة الثانية. ويُدْمَجُ هذان النوعان ليُكَوِّنَا معاً موضوع سيميوطيقا الثقافة (انظر للمزيد من التوضيح الفصل المخصص لسيميوطيقا الثقافة).

(20) نفسه ص 30

3. الأنساق اللّفظية والأنساق غير اللفظية

أي صنف من هذين الصنفين يبدو الصنف الأهم والمميز ؟ أهُوَ صنف الأنساق اللفظية أم صنف الأنساق غير اللفظية ؟ وماهي الأسس الموجِّهة لأية نظرة من النظرتين ؟

يذهب أمبرطو إيكو وإيزابيلا بيتسيني I.Pezzini إلى أن النسق اللفظي يمتلك ، من بين كل الأنساق ، خاصيتين مميّزتين : فهو النسق الذي يمكن أن تترجم إليه كل الأنساق الأخرى دون استثناء ، هذا أولًا ، وثانيا ، إنه النسق المدروس بشكل أفضل والنسق الذي يمكننا أن ندرسه بشكل أفضل وأن نحلله ، بدقة متناهية ، إلى وحدات نطقية (21). وإذا كانت الواقعة الثانية ، كما يرى أمبرطو إيكو وإيزابيلا بيتسيني Isabella Pezzini ، واقعة صحيحة تاريخيا إلى حدود بداية الستينات ، فإن الواقعة الأولى صحيحة إلى حَدٍّ ما ذلك أن النسق اللفظِي هو النسق الذي يمكنه أن يُتَرْجِمُ بألفاظه الخاصة ، أفضل من الأنساق الأخرى ، الرسائلَ التي تبعث بها أنساق أخرى ، بينما العكس ليس صحيحا دائما. ومع أن الواقعة الأولى صحيحة ، فإن القول بأن النسق اللفظي يمكنه أن يترجم رسائل الأنساق الأخرى لايعني أن قوانين النسق اللفظي هي قوانين الأنساق الأخرى (22).

إن رأي بارط يستند الى أن اللغة الانسانية ليست نموذجاً للمَعْنَى فقط ، وإنما هي أيضا أساسه (23). وبهذا الاعتبار ، فإن الأشياء لاتدل إلا بواسطة اللغة الانسانية لأن اللغة هي التي تمدنا بالمعنى ، ومعناها هو النموذج والمثال ، أما معاني الأشياء فهي لا تعدو أن تكون معاني ترمي إلى الاقتراب من المعاني النموذجية والمثالية التي توفرها اللغة.

ويعني ذلك ، من جهة ثانية ، أن تقطيعنا للعالم تقطيع لساني في جوهره ، إذ لا تتكوّن المعاني مالم تكن هناك لغة ، إذ هي المنطلق والسَّنَدُ. وعليه ، فإن أي شيء لا يصير دالا إلا بالاحالة على النسق الدال الأول لأن ذلك الشيء ليس سوى مرآة للنسق اللفظي.

إن أي شيء غير لفظي لايمكنه أن يتكلم أو أن يدل إلا بواسطة اللغة التي تتكلمه وتتكلم عنه ، ولذلك ، فدلالته متوقفة على الدلالة اللسانية التي امتدت لتحتوي ظواهر أخرى. وإذن فاللغة تؤسس كل الأنماط الأخرى للدلالة (24) ، ولولاها لما كانت الأشياء دالة وحاملة لمعانٍ. ومن ثمة ، فنموذجُ الأنساق غير اللفظية نموذج لساني بل إن قوانينها هي قوانين النسق اللفظي ، وهذا مالم يره امبرطو إيكو وإيزابيلا بيتسيني صحيحا.

وفي مواجهة هذا التصور ، هناك تصور روسي ـــ لاندي الذي يفترض استقلالية الأنساق الدلالية غير اللفظية عن اللغة وتميزها عنها. ويشرع في معالجة هذه المسألة انطلاقا

(21) La Sémiologie des Mythologies. in communications 36. P. 31

(22) نفسه ص 31 ـــ 32

(23) Système de la mode P.9

(24) نفسه. ص 24

من الاعتراف بأن أهمية الأنساق الاجتماعية غير اللفظية تحول دونها عقبات مترتبة عن عدة عوامل منها الاعتقاد المفرط في نسبة تفوق اللغة المنطوقة والمكانة الرفيعة التي تحتلها. ومن المعضلات التي توقف عندها روسي — لاندي وحاربها الرأي القائل بضرورة وجود اتفاق لفظي سابق ليتّخذ نسق الدلائل غير اللفظية مكانا بين المستعملين للنسق. وفي رد روسي — لاندي على مثل هذا الرأي يعتبر أن هذا الاتفاق يجب ، في الواقع ، أن يجد مكانه بين الناس الذين يفتقدون النّسق الدلالي غير اللفظي بالذات. ومن جهة ثانية ، فإنه من اللامعقول أن يتكلم الناس ولا يقومون بعمل ولا يملكون أية مؤسسة أخرى غير مؤسسة اللغة. وإضافة الى ماسبق ، فإن فكرة الاتفاق السابق تعود بنا الى النزعة التعاقدية المجحفة ، أي أنها تعود بنا إلى المفهوم القائل بوجود أفراد ذوي تكوين مهيإ قبليا قد شرعوا في النقاش ليصوغوا ذلك العقد الذي تعود إليه قوة تكوينهم بدل شيء آخر (25). وانطلاقا من ذلك ، يرفض رفضا باتا الموقف الذي يجعل الأنساق الدلالية غير اللفظية متوقفة في ظهورها على الأنساق الدلالية اللفظية ، كما يرفض الموقف الذي ينبني على التسليم بالبنية اللغوية الموجِّهة. ويُعَزِّزُ رفضَه هذا باعتباره أن كل الأنساق الدلالية الاجتماعية قد تطورت جنبا الى جنب (26) ، وأن هذه الأنساق قد وجدت ، منذ البداية ، في شروط استقلال بنيوي متبادل ، وفي نفس الآن في شروط تأثير متبادل. إلا أن ذلك لايعني ، في رأيه ، غياب أية هرمية مفروضة من قبل حاجات واقعية ، على الأنساق الدلالية ، وإنما يعني أن الأنساق الدلالية الاجتماعية الأساسية هي أنساق أولية مُنَمْذِجَة ، تبعا لمصطلح لوتمان Lotman الذي يعتبر نسق اللغة هو النسق الأولي ويعتبر كل الأنساق الدلالية غير اللفظية ثانوية. وإذا كانت لكل الأنساق الدلالية الاجتماعية قوة منمذِجَة أولية ، فإن التقدير الاستقرائي الناجم عن فصل كل نسق دلالي اجتماعي عن الأنساق الأخرى تقدير يفترض طبيعة تجريدية خطيرة (27). وقد أفضى هذا القول بروسي — لاندي الى الاعتقاد بأن فكرة دراسة نسق دلالي اجتماعي في انعزال عن أنساق دلالية اجتماعية أخرى فكرة خاطئة في ذاتها. ولأن الانسان يعيش في الطبيعة وهو أيضا ، نفسه طبيعة ، فإن مفهوم دراسة الأنساق الدلالية الاجتماعية حينما تكون معزولة عن الأنساق الدلالية الطبيعية لا يمكن أن يكون مفهوما صحيحا (28).

وينتقل روسي — لاندي ، بعد ذلك ، إلى عرض ثلاثة أسباب تُفَسِّرُ الاسبقية المعطاة ، عادة ، للأنساق الدلالية اللفظية. وهي :

(25) Linguistics and Economics P.18

(26) نفسه. نفس الصفحة

(27) نفسه. ص 18 — 19

(28) نفسه. ص 19

1 ـــ لقد كانت اللغات هي الأنساق الدلالية الاجتماعية الأولى التي تبأرت حولها العناية بجهد واع ، وقد نما حول اللغة نفسها فضول دليلي ، وقد تمكن هذا الفضول والأدوات المعدة لتلبيته من الشروع ، في لحظة ثانية ، في التوسع خارج اللغة ، في حركة باتجاه أنساق أخرى ـــ سواء درست هذه الأنساق الدلالية من جهات مختلفة للنظر أم لم تدرس ـــ (...) وقد بدأت تظهر طبيعة كل الأنساق الدلالية غير اللفظية حول منطقة إدراكية كانت ، في الأصل ، مقتصرة على الأنساق الدلالية اللفظية (29).

2 ـــ إن الأصوات المتلفظ بها التي تعتمد عليها الأنواع السننية للغات أشياء مؤسَّسَة أنتجها جسم الانسان ، وهي ، في الوقت ذاته ، داخل العضوية وخارجها. ويعني هذا أن للغةِ ، في أحد مظاهرها ، صلة بالأنساق الدلالية غير اللفظية المنتسبة للنمط الشيئي. وفي جانب آخر ، تعتبر اللغة ذات صلة بالأنساق الدلالية غير اللفظية المنتمية الى النمط المؤسسي ، كما تعتبر في جانب ثالث ، ذات صلة بأنماط متنوعة من الأنساق الدلالية التي يمكن أن نُوَحِّدَ بينها تحت عنوان العضوية. ومن شأن علاقات القرابة هذه أن تَكْسِبَ اللغة تغطية تفتقر إليها ، عادة ، الأنساق الدلالية غير اللفظية. إن كل فرد منا يتعلم كيف يصدر بنفسه ، بواسطة جسمه ، الأصوات المنطوقة للغة دون أن يضطر الى الاستعانة بأي شيء خارجي. ومع ذلك ، فإن هذه الأصوات أشياءُ موجودة في العالم الخارجي. وفي الأخير ، تشكل هذه الأصوات مؤسسة ، ونسقا «فوق ـــ فرديا». ثم ينتهي روسي ـــ لاندي الى أن اللغة ، رغم تعقيدها ، فإنها تقدم نفسها بوصفها موضوعا للدراسة مغرياً وفي المتناول (30).

3 ـــ السبب الثالث سبب ذو أهمية كبرى ، ويتعلق الأمر بالسبب الايديولوجي. فلقد كانت اللغة ، على الدوام ، مستودعاً للسلطة بامتياز ذلك أن الطبقات المسيطرة والطوائف والجماعات قد كانت توظف اللغة ، دائما ، لخدمة أهدافها الخاصة. لقد كان التعارض القائم بين الرأس واليد ، منذ البداية ، تعارضاً بين الأنساق الدلالية اللفظية والأنساق الدلالية غير اللفظية (31).

وفي اعتقاد روسي ـــ لاندي أن هذه الأسباب الثلاثة كفيلة بتفسير الأسبقية التي أحرزت عليها اللغة ـــ وما تزال تحرز عليها. إلا أنه يرى ، من جهة ثانية ، أن هذه الأسباب ذاتها لا يمكنها أن تكون في صالح تلك الأسبقية المسندة إلى اللغة. ومن جهة ثالثة ، يعترض روسي ـــ لاندي على «أسبقية اللغة» في المطلق ذلك أن قولنا بهذه الأسبقية يعني أن اللغة لا توجد بالفعل بدون أنساق دلالية أخرى. ثم إن القول بأسبقية اللغة شبيه بالقول بأسبقية

(29) نفسه. نفس الصفحة
(30) نفسه. ص 19 ـــ 20
(31) نفسه ص 20

الهضم على التنفس أو أسبقية الأنهار ، في تشكلها ، على البحار ، أو أسوأ من ذلك بأسبقية الطرقات السهلية على الطرقات الجبلية.

وبما أن اللغة وجميع الأنساق الدلالية الأخرى لجماعة ما ، تنسج ، في حقيقة الأمر ، علاقات تبادلية ، فإنه من غير المفهوم إطلاقاً تبرير كيفية إسناد المرء أسبقية حقيقية إلى أي نسق من هذه الأنساق الدلالية.

وإذا سلمنا بأسبقية اللغة وسيطرتها على الأنساق الدلالية الأخرى ، فإن ذلك لا يعني مطلقا ، فيما يذهب إليه روسي ـــ لاندي ، أن كل الأنساق الدلالية الأخرى ستكون متوقفة على اللغة. بل إن هناك أسبابا معقولة تدفعه الى تبني تصور نقيض لمثل هذا التصور وإن كان لا يتعلق بكل الأنساق الدلالية غير اللفظية ، وإنما يتعلق بالكثير منها. إن اللغة تتوقف على أنساق دلالية تجدها حاضرة وجاهزة عند حيوانات أخرى. ويرجع ذلك الى الاستمرارية البيولوجية القائمة بين الحيوانات والانسان. وبما أن الأنساق الدلالية قد وجدت قبل اللغة ، فإنه من الواجب أن تكون اللغة قد تكيفت معها. وفضلا عن ذلك ، فإن اللغة لا زالت تُطَعَّم وتتغذى من كل الأنساق الدلالية غير اللفظية التي تحيل عليها (32).

ويعزز روسي ـــ لاندي هذا التصور بتلك الصعوبات التي يواجهها الانسان الذي يريد تعلم لغة أجنبية ، وهي صعوبات تتصل بعدم قدرته على استيعاب الثقافة التي تستند إليها تلك اللغة. يقول روسي ـــ لاندي : «من الواضح ، أن ما يتبقى من ثقافة معينة لا يكمن في شيء غير الأنساق الدلالية غير اللفظية» (33).

إن النسق الدلالي غير اللفظي ، فيما يرى روسي ـــ لاندي ، ليس متميزا عن اللغة فحسب ولكنه مستقل عنها كذلك. وللبرهنة على ذلك أخذ مثالا من النسق الدلالي غير اللفظي الشيئي المكون من الأشياء المادية المستعملة في الحياة المنزلية اليومية وهو السكين. إن سكين المائدة شيء مصنوع أنتجه الانسان. وكل شيء مصنوع هو بمثابة شيء اجتماعي مزود بخصائص محددة تجعله أداة نافعة. والسكين ، كشيء ، ليست أداة تُسْتَعْمَل لكي تمد جسم الانسان بقدرة بين الفينة والأخرى فحسب ، وإنما هي ، على الأصح ، أداة مُنْتَجَة وفقا لنموذج معين وأغراض دقيقة : فهي شيء مستقل وتام بذاته. إنها شيء يمكن أن يُسْتعمل ـــ ويُستَعمل في كل حين ـــ في مجالات مختلفة ومتعددة من قبل أي فرد من أفراد الجماعة البشرية. فالسكين أداة حقيقية وذات مستوى معقد ونافع في آن ، وتتكون من عدة أجزاء. ولقد صُنعت وشُكلت من قبل الانسان تبعا لقواعد محددة تماما كما يصنع الانسان الجملة ويكونها وفق قواعد محددة. وهي تُستعمل لقَطْع أشياء معينة ولا تُسْتَعْمَل لقطْع أشياء أخرى.

(32) نفسه. ص 20 ـــ 21
(33) نفسه. نفس الصفحة

إن لغة الأشياء ــ وهو مصطلح يعادل مصطلح الأنساق الدلالية غير اللفظية ــ هي كل ما تقوم به السكين وتعادل كل ما يمكن للسكين أن تنسج معه علاقة حقيقية ، وعلى غرار هذا المنوال تشكلت «الخِطابات» (أي مجموعة من الجمل المرتبطة فيما بينها) التي يمكن للسكين أن تكون جزءا منها (34).

إننا حينما نرى صديقا على المائدة يقطع خبزه بالسكين ، فإننا نُجْمِعُ على أن ما يفعله شيء طبيعي بالنسبة إلينا. أما إذا رأيناه يحاول قطع الحديد ، فإننا نفهم ما الذي يرغب في القيام به لأن هذا الفعل يحمل معنى وإن كنا نعتقد بأنه فعل مستحيل. غير أن هذا الصديق إذا شرع في قطع الهواء أو الماء فإن سلوكه سيبدو غير معقول أو أنه سيبدو سلوكا مجازيا. إن كل هذه الصور تحدث بطريقة متميزة ومستقلة عن الأنساق الدلالية اللفظية التي نلجأ إليها عندما نريد أن نتكلم عن هذه العينات من السلوك (35). إن لغة الأشياء هي مسألة «المعاني الموضوعية السابقة على تكوين الوعي» والتي يتم فيها تواصل الناس فيما بينهم بشكل لا واعٍ أثناء عمليتهم الانتاجية (36).

لقد حاول روسي ــ لاندي ، من خلال هذا الحديث الطويل ، أن يجلو العلاقات الحقيقية القائمة بين الأنساق الدلالية اللفظية وغير اللفظية ، وذلك عبر انتقاده للأفكار المغلوطة الصادرة في هذا الموضوع حول أفضلية النسق اللفظي وأسبقيته.

إن النسق الدلالي غير اللفظي لم يوضع وضعا قائما على التعاقد لأنه يشكل الحيز الحياتي الذي يعيشه الانسان. إنه الفضاء الاجتماعي والزماني والمكاني الذي وجد الانسان نفسه فيه. وهو مجال حياتي طبيعي واجتماعي أو طبيعي ومصنوع. ويعني ذلك أن الانسان لم يكن يفتقر الى النسق الدلالي غير اللفظي. ويعزز هذا الرأيَ كونُ الأنساق الدلالية غير اللفظية ليست جميعها أنساقا واعية إذ إن جزءا غير يسير منها غير واعٍ.

ومؤدى ذلك أن مختلف الأنساق ، لفظية كانت أم غير لفظية ، قد ظهرت الى الوجود بجانب بعضها البعض بحيث إن الانسانية كانت تملك جملة مؤسسات من بينها اللغة وجملة نتاجات من بينها النسق اللفظي والنسق غير اللفظي.

وبهذا المعنى ، فإن الأنساق غير اللفظية لا تتوقف ، في حقيقة أمرها ، على اللغة. وإذا صح ذلك فاللغة ليست متحكمة في الأنساق غير اللفظية وليست موجِّهة لها لأن مختلف الأنساق قد نشأت في ظروف متماثلة جعلتها تتبادل التأثير فيما بينها. فالأشياء الطبيعية والمصنوعات الانسانية قد نشأت منفصلة عن بعضها البعض متبادلة التأثير فيما بينها. إنها في مجموعها رموز متفردة وذات خصوصية من حيث الوظيفة الدقيقة التي تؤديها ومن حيث

(34) نفسه. ص 21 ــ 22
(35) نفسه. ص. 22 ــ 23
(36) نفسه ص 23

ظروف تكونها أو من حيث تميز الخبر الذي تحمله ووضوحه ودقته. ورغم هذا التنوع ، فقد أطرتها شروط بنائية واحدة.

إن الانسان قد حصل على مؤسسات عدة تعايشت. وليست مؤسسة اللغة إلا واحدة منها. ولذلك لا يصح القيام بدراسة الأنساق الدلالية المختلفة في انفصال عن بعضها البعض لأن مثل هذا العمل يكتنفه نزوع خطير نحو التجريد.

ومع ذلك ، فإنه من الخطإ الاعتقاد ألا هرمية للأنساق الدلالية. ذلك أن حاجات الانسان الواقعية قد جعلت من اللغة النسق المُتَمَنْذِجَ الأولي. فهي النسق الدلالي الأولي الذي نصوغ من خلاله تجربتنا وحياتنا وعالمنا ومشاعرنا وأفكارنا.

غير أن هناك أسبابا جعلت الأنساق اللفظية تهيمن على غيرها من الأنساق. ويعود ذلك ، في رأي روسي — لاندي ، إلى أن اللغة هي النسق الدلالي الذي حظي بعناية كبرى ، فقد أولى الانسان للغة عناية خاصة واعية تمحورت حول مستوياتها المختلفة من صوتيات وصرف وتركيب ودلالة. فأصبحت اللغة ، نتيجة لذلك ، مُسْتَوْعَبَةً في دلالتها مختلف الأغراض والحاجيات الاجتماعية للانسان ، إلى أن توسع مجهود الانسان خارج اللغة باتجاه أنساق أخرى من شأنها أن تشبع الحاجيات الحياتية والفنية والجمالية لدى الانسان.

وإذا كان ذلك يشكل السبب الأول ، فإن السبب الثاني يكمن في كون المادة الأولية التي تتشكل منها اللغة — وهي الأصوات — هي أشياء ينتجها جسم الانسان أي جهازه النطقي. فهي ، إذن ، داخل الجسم وخارجه. وعليه ، فإن اللغة والأنساق الدلالية غير اللفظية تنتسب جميعا الى الأنساق الدلالية الشيئية والأنساق الدلالية المؤسسية والأنساق الدلالية العضوية. وقد وفرت علاقات القرابة هذه بين الأنساق الدلالية اللفظية والأنساق الدلالية غير اللفظية تغطية للغة تفتقدها الأنساق الأخرى بحيث إن الانسان يتعلم إنتاج الأصوات دون أن يستعين بأي شيء خارجي عن جسمه. ورغم تعقيد اللغة فقد أولى الانسان اهتماما كبيرا لدراسة النسق اللفظي بشكل أفضل وأمثل في مقارنته مع باقي الانساق. فتركز أغلب الاهتمام على اللغة فاستحوذت على المجهودات الواعية للانسان وهمّشت أو كادت تُهمّش الانساق الدلالية غير اللفظية.

ويعود السبب الثالث الى التوجيه والسيطرة الايديولوجيين. فاللغة ، من بين كل الأنساق ، أداة متميزة في يد السلطة والفئات المُميَّزة. فمن يمتلك اللغة يمتلك السلطة. وقد استُعْمِلَ النسق اللفظي لتلبية حاجات هذه الفئات. ونتيجة لتقسيم العمل بين الجانب الفكري منه والجانب اليدوي ، تعارضت الأنساق اللفظية مع الأنساق غير اللفظية ، فمثلت الأنساقُ اللفظيةُ الجانبَ الفكري ومثلت الأنساقُ غيرُ اللفظية الجانبَ اليدوي. أي أن من يمتلك اللغة هو من يمتلك الفكر وحق التوجيه والسيادة ، ومن يمتلك الأنساق الأخرى هو من لا يمتلك غير واجب التنفيذ والانجاز.

ومهما كانت أهمية هذه الأسباب وقوة تفسيرها لهيمنةِ اللغة على باقي الأنساق الدلالية ، فإنها يمكن أن تُسْتَغَلّ ضد هذه الهيمنة ذاتها. فالقول بأسبقية اللغة في المطلق يجعل اللغة خارج الواقع مع أنها وجدت بصحبة الأنساق الدلالية الأخرى وتلاحمت معها. وإذا ما سلمنا بهيمنة اللغة فإن ذلك لا يعني توقف هذه الأنساق على اللغة. بل إن اللغة ذاتها تتوقف على أنساق دلالية وجدت قبلها جاهزة. ولذلك صار من المفروض على اللغة أن تتكيف معها. وفضلا عن ذلك فإن تطور اللغة ونموّها رهين بما توفره لها تلك الأنساق غير اللفظية. إن وراء اللغة ثقافة معينة تتحكم فيها وتوجهها باعتبار أن قواعد اللغة قواعد ثقافية. وفي هذا اعتراف بأن وراء اللغة أنساق غير لفظية تؤطرها. لذا وجب الحديث عن التقطيع الثقافي للعالم وعن الخلق الثقافي للدلالات بدل التقطيع اللغوي للعالم.

ويمكن أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول إن الأنساق غير اللفظية متميزة بل ومستقلة عن اللغة وتُستعمل في انفصال عنها. إنها ذات قواعد محددة قد تطابق قواعد اللغة وقد تختلف عنها اختلافا بيّنا. ولذلك يصح الحديث عن «لغة الأشياء» التي تحقق نوعا من التواصل اللاواعي. وأما تأويلنا لدلالات هذه الأشياء ، فإنه يتحقق بدون أية استعانة باللغة ، وإنما يتحقق بشكل متميز ومستقل عنها.

الفصل الثالث

مفهوم الدّليل

ليس من الممكن تقديم تعريف واحد للدليل. ومرد ذلك الى الخلفيات الفكرية التي يستند إليها. وسنحاول في هذا الفصل ، تقديم بعض التعريفات المتداولة المتعارضة أو المختلفة مولين أهمية كبرى لمفهوم الدليل عند بورس الأمريكي.

1. الدّليل عند سوسير

الدليل اللساني عند سوسير هو «وحدة نفسية ذات وجهين... وهذا العنصران مرتبطان ارتباطا وثيقا ويتطلب أحدهما الآخر... ونطلق على التأليف بين التصور Concept والصورة السمعية image acoustique الدليل... ونقترح الاحتفاظ بكلمة دليل لتعيين المجموع ، وتعويض التصور والصورة السمعية ، على التوالي ، بمدلول ودال (1).

إن للدليل ، إذن ، مكونين هما الدال والمدلول. والدال لا يتشكل من الصوت الواقعي والمادي والطبيعي ذلك أن الصورة السمعية هي عبارة عن الانطباع النفسي للصوت. وهي أيضا عبارة عن وسيط. أما المدلول ، فإنه ليس ذلك الشيء الواقعي الملموس الذي يُعَيِّنُهُ الدليل ، وإنما هو التمثيل الذهني للشيء. فهو ، مثله مثل الدال ، ذو طبيعة نفسية.

وإذا كان الدليل هو الجمع بين هذين العنصرين النفسيين ، فهو بالضرورة كيان نفسي. وعليه ، فإنه يجد موقعه في اللسان لافي الكلام باعتبار اللسان ، في المفهوم السوسيري ، مجموع العلاقات بين الأشكال والقواعد والبصمات المختزنة في أدمغة الذوات المتكلمة.

والعلاقة بين الدال والمدلول لا تقوم على المشابهة والمناسبة وإلا لما تعددت الألسنة ، بل تقوم هذه العلاقة على الاعتباطية إذ لا توحي الدوال بمدلولاتها بشكل تلقائي وطبيعي. أما اشتمال الألسنة على الكلمات المناسبة للطبيعة onomatopées وصيغ التعجب ، فإنه لا يطعن

(1) Cous de linguistique générale P. 99

في صحة هذا المبدإ. ففضلا عن كون هذه الكلمات محصورة العدد ، فإنها سرعان ما تندمج في اللسان خاضعة لقوانينه الصوتية والصرفية. وهكذا ، فإنه لا وجود لرابط طبيعي ، في الواقع ، بين الدال والمدلول (2).

ويطلق سوسير على هذا النوع من الاعتباطية الاعتباطية الجذرية أو المطلقة ذلك أن إنتاج الدال والمدلول يتم بواسطة تقطيع اعتباطي للمادة الصوتية ومادة الأفكار.

إن نسق الدلائل خاضع ، في نظر سوسير ، لنظرية القيمة. فالدليل لا يتحدد من خلال واقعه المادي. وإنما يتحدد من خلال ما يجاوره أي من خلال العلاقات الاختلافية différentielles والتعارضية oppositionnelles على مستوى الدوال وعلى مستوى المدلولات. وبالتالي ، فإن القيمة هي التي تحدد الوحدة اللسانية (3).

ويتضح ، من مفهوم الدليل عند سوسير ، ما يلي :

1 — الدليل كيان نفسي مجرد ينتسب الى اللسان لا إلى الكلام.

2 — الدليل ثنائي الطرفين ، فهو يتكون من دال ومدلول. وفي ذلك اختزال له إذ يُقْصَى الشيء المسمى أو المرجع.

3 — الدليل اعتباطي بما في ذلك الدليل غير اللفظي الذي يتراوح بين الاعتباطية والطبيعية أي أن الدليل غير اللفظي يمزج بين هاتين الخاصيتين المتعارضتين.

4 — يُنْظر الى الدليل غير اللفظي انطلاقا من النموذج اللساني. وإذن ، فإن الأسبقية تُعْطَى للدليل اللساني الذي يشكل المعيار والمقاس لمختلف الدلائل الأخرى.

5 — الدليل ، بفضل تجريديته ، مفهوم محايد إذ يلغي الذات والايديولوجيا. وعليه ، فإن سوسير يهتم بإنتاج الدليل لا بالتعبير عنه.

2. مفهوم الدّليل عند رولان بارط

بادىء ذي بديء يُعْتَبَرُ رولان بارط أن الدليل يندرج ضمن سلسلة من المصطلحات المتقاربة والمتغايرة مثل العلامة Signal والأمارة Indice والرمز Symbole والمِثَال allégorie. وتشترك هذه المصطلحات في عنصر مشترك ذلك أنها جميعا تحيل ، بالضرورة ، على علاقة بين متعالقين relata (4) . وحتى يتم التمييز بين هذه المصطلحات ، لابد من اللجوء الى ملامح أخرى يقدمها بارت على شكل بديل (حضور/غياب) : 1) تتضمن العلاقة — أو لاتتضمن — التمثيل النفسي لأحد المتعالقين؛ 2) تتضمن العلاقة — أو لا تتضمن — مشابهة بين المتعالقين؛ 3) العلاقة بين المتعالقين (المثير والاستجابة) علاقة مباشرة أو غير

(2) نفسه ص. 31

(3) نفسه. ص. 153 — 154، 162 — 167.

(4) Eléments de Sémiologie in communications N°4 P.103

مباشرة؛ 4) يتطابق المتعالقان تطابقا تامّاً ، أو على النقيض من ذلك ، «يتجاوز» أحدهما الآخر؛ 5) تتضمن العلاقة ــ أو لا تتضمن ــ نِسْبَة وجودية مع الشخص الذي يستعملها (5).

إن الدليل يتكون من دال ومدلول. ويشكل مستوى الدوال مستوى التعبير plan de lèxpression ، كما يشكل مستوى المدلولات مستوى المحتوى plan de contenu . ومن المعلوم أن يلمسليف Hjelmslev قد أدخل داخل كل مستوى من هذين المستويين تمييزا يمكن ، في رأي بارط ، أن يكون مهما لدراسة الدليل السيميولوجي. وهكذا ، فإن كل مستوى يحتوي ، بالفعل ، بالنسبة ليلمسليف ، على طبقتين : الشكل Forme والمادة substance . والشكل هو ما يمكن وصفه ، بصفة شمولية وببساطة وانسجام ، بواسطة اللسانيات دون اللجوء إلى مقدمات خارج ــ لسانية. ولأن هاتين الطبقتين توجدان في المستويين معا ، فإننا نحصل على :
1) مادة التعبير : مثل المادة الصوتية والنطقية وغير الوظيفية التي يهتم بها علم الأصوات phonétique لا الصوتيات (الصوّاتة) phonologie؛ 2) شكل التعبير وتُشكله القواعد الاستبدالية والتركيبية؛ 3) مادة المحتوى ، ويتعلق الأمر ، مثلا ، بالمظاهر الانفعالية والايديولوجية أو المفهومية للدليل؛ 4) شكل المحتوى ، ويتعلق الأمر بالتنظيم الشكلي للمدلولات فيما بينها وذلك بواسطة غياب أو حضور سمة دلالية. (6).

ويعتقد رولان بارط أن التقسيم الفرعي : شكل/مادة يمكن أن يصبح من جديد مجدي الاستعمال وسهله ، في السيميولوجيا ، في الحالتين التاليتين : 1) حينما نجد أنفسنا أمام نسق تتجسد فيه المدلولات في مادة أخرى غير مادة نسقها الخاص (مثال : التقليعة mode المكتوبة)؛ 2) حينما يحتوي نسق من الأشياء على مادة غير دالة بشكل مباشر ووظيفي ، غير أنه يمكنها أن تكون ، في مستوى معين ، نافعة لاغير : ذلك أن أكلة ما تستخدم للدلالة على حالة ما ، لكنها تستخدم أيضا للتغذية. (7).

وبناء على ما سبق ، يمكن التنبؤ بطبيعة الدليل السيميولوجي بالنظر الى الدليل اللساني. إن الدليل السيميولوجي يتكون ، هو أيضا ، على غرار نموذجه ، من دال ومدلول (لون ضوء ما ، مثلا ، هو عبارة عن أمر بالمرور في سنن المرور) ، إلا أنه ينفصل عنه على مستوى المادة. ذلك أن العديد من الأنساق السيميولوجية (أشياء ، إشارات ، صور) ذات مادة للتعبير لا يوجد كيانها في الدلالة : ويتعلق الأمر ، في الغالب ، بأشياء صالحة

(5) نفسه. 103
(6) نفسه. ص 105 ــ 106
(7) نفسه. ص 106

للاستعمال يعمل المجتمع على اشتقاقها لغايات دلالية : فاللباس يستخدم للوقاية ، والطعام يستخدم للتغذية ، ويستخدمان معا أيضا للدلالة (8).

ويقترح بارط تسمية هذه الدلائل السيميولوجية ذات الأصل النفعي والوظيفي بالوظائف ـــ الدلائل fonctions-signes . إن للوظيفة ـــ الدليل قيمة أنثروبولوجية بحيث إنها الوحدة التي تنسج فيها علاقات التقني والدال. (9).

أما بخصوص الاعتباطية ، فإنها ، في نظر بارط ، تطرح على السيميولوجيا مجموعة من المشاكل. ذلك أنه من الممكن من جهةٍ ، إيجاد أنساق معلّلة motivés (أيْ مناسبة للطبيعة) إلى حد كبير ، فيجب ، آنذاك ، القيام بوضع الطريقة التي تكون فيها المشابهة موافقة للمنقطع discontinu الذي يبدو ، لحد الآن ، ضروريا للدلالة؛ وبعد ذلك كيف يمكن أن تقام السلاسل الاستبدالية حينما تكون الدوال متشابهات. ويتعلق الأمر ، هنا ، بالصور images. ومن جهة ثانية ، من المحتمل جدا أن يكشف الجرد السيميولوجي عن وجود أنساق غير خالصة تحتوي إما على تعليلات motivations جد مرتخية وإما على تعليلات تتخللها اعتباطيات ثانوية كما لو أن الدليل يعيش صراعا بين المُعَلَّلِ وغير المُعَلَّل. ويتعلق الأمر بالمنطقة الأكثر تعليلا في اللسان أي بالكلمات المناسبة للطبيعة (10).

3. مفهوم الدّليل عند أمبرطو إيكو

سنغض الطرف عن تعريف إيكو للدليل وعن أنماط إنتاج الدلائل. ونخص بالحديث نوعاً واحداً من الدلائل.

يميز أمبرطو إيكو الدلائل الطبيعية عن الدلائل غير القصدية. إن هناك نمطين من «الدلائل» التي يبدو أنها تخفي التعريف التواصلي ، وهما أ) الأحداث الطبيعية الصادرة عن مصدر طبيعي ، ب) السلوك الانساني غير الصادر بشكل قصدي من قبل المُرْسِلِين.

وهكذا فإنه من الممكن أن نستنبط من الدخان وجود النار... ومثل هذه الحالة هي حالة استدلال Inference. ومن الملاحظ أن حياتنا اليومية مملوءة بهذه الأفعال الاستدلالية. وعليه ، فإن هناك وجودا لأفعال استدلالية يَنبغي أن يُتَعَرَّف عليها باعتبارها أفعالا سيميوطقية.

ويمكن أن نخلص من ذلك إلى أن هناك دليلًا كلما قررت جماعة إنسانية استعمال شيء ما والتعرف عليه باعتباره ناقلا لشيء آخر. وبهذا المعنى ، فإن الأحداث الصادرة عن

(8) نفسه. نفس الصفحة

(9) نفسه. ص 106 ـــ 107

(10) نفسه. ص 111

مصدر طبيعي يمكن أن تُجَدْوَل باعتبارها دلائل لأن هناك تعاقدا يفترض تَضَايُفا correlation مُسَنَّناً بين تعبير ومحتوى (11).

أما فيما يتعلق بالدلائل غير القصدية ، فإن الكائن الانساني ينجز أفعالا يدركها أيٌّ كان باعتبارها وسائل عَلَامِية كاشفة عن شيء آخر ، حتى لو كان المرسِل غير واعٍ بالخاصية الكاشفة لسلوكه. والمثال النموذجي لذلك هو السلوك الاشاري gestual behaviour . ولابد من القول هنا إن وراء إشارة الكائن الانساني قصداً دالاً عميقا (12). وباختصار ، فإن أي شيء يمكنه أن يُفْهَمَ باعتباره دليلا إذا ما وُجِدَ تعاقد يسلِّم بتعويضه لشيء آخر ، أما إذا كانت بعض الاستجابات السلوكية غير ظاهرة بواسطة تعاقد ما ، فإن المثيرات لا يمكن أن يُنْظَرَ إليها باعتبارها دلائل (13).

وبخصوص مسألة الاعتباطية ، يرى أمبرطو إيكو أن الدلائل القائمة على المشابهة (مثل آثار الأقدام وعلامات المرور...) تبلِّغ شيئا معينا بالنظر الى نسق التعاقدات أو نسق التجارب المكتسبة. وهكذا ، فمن الآثار المرسومة على الأرض أستنبط حضور حيوان إذا كنت قد تعلمت وضع علاقة تعاقدية بين هذا الدليل وهذا الحيوان (14). وبذلك يؤكد أمبرطو إيكو أن كل الظواهر المرئية التي يمكن تأويلها كأمارات indices يمكن اعتبارها دلائل تعاقدية (15). إن الدلائل الأيقونية iconiques لا تملك خاصيات الشيء المُمَثَّل له ، وهي لا تستنسخ إلا بعض شروط الادراك المشترك (16). وهكذا ، فالدليل الأيقوني يمكن ، إذن ، أن يحتوي ، من بين خاصيات الشيء ، على الخاصيات المرئية والخاصيات الوجودية (الأنطولوجية) والتعاقدية (17).

4. مفهوم الدّليل عند باختين وشارْودُو

إذا كان تعريف الدليل ، عند سوسير ، تعريفا تجريديا ، فإن تعريف ميخائيل باختين يرتبط ارتباطا صميميا بالفعل النسيميائي ، لغويا كان أم غير لغوي. فالدليل يتناسب والايديولوجيا ، فحيث يوجد الدليل توجد كذلك الايديولوجيا (18). وليس كل دليل ايديولوجي انعكاسا للواقع وظلا له فحسب ، وإنما هو أيضا قطعة مادية من هذا الواقع...

(11) A theory of sémiotics P. 16—17

(12) نفسه ص 17 — 18

(13) نفسه ص 19

(14) La structure absente P. 173

(15) نفسه. نفس الصفحة

(16) نفسه. ص 176

(17) نفسه. ص 180

(18) Le marxisme et la philosophie du langage P. 27

وبهذا المعنى ، فواقعية الدليل واقعية تامة الموضوعية. إن الدليل عبارة عن ظاهرة من العالم الخارجي إذ يظهر ، مع الآثار التي يحدثها ، في التجربة الخارجية (19).

إن الدلائل لا يمكن أن تظهر إلا في حقل تفاعل الأفراد ، أي في التواصل الاجتماعي. وبذلك ، فوجود الدلائل ليس أبدا غير التجسيد المادي لهذا التواصل (20). ومن ثمة ، يخلص باختين إلى ثلاث قواعد منهاجية هي :

1 ـــ عدم فصل الايديولوجيا عن الواقع المادي للدليل ،
2 ـــ عدم عزل الدليل عن الأشكال الملموسة للتواصل الاجتماعي ،
3 ـــ عدم عزل التواصل وأشكاله عن أساسهما المادي (21).

إن باختين لا يعتبر الدليل حياديا. ويعني ذلك أن الذوات لا تستعمل الدلائل استعمالا نحويا وتقنيا خالصين ذلك أن الدليل شديد الارتباط بالموقع الاجتماعي الذي يندمج فيه أي بالمقام والوسط الاجتماعي. واعتمادا على ذلك ، يستعمل المخاطِب اللغة لتأدية أغراضه القولية الملموسة ذلك أن «بناء اللغة مُوَجَّةٌ نحو فعل القول énonciation ونحو الكلام». إن المخاطِبَ يستعمل الأشكال المعيارية في سياق ملموس معطى. فما يهمه ، إذن ، هو ما يسمح للمشكل اللساني بالتجسيد في سياق معطى ، وهو ما يجعل من هذا الشكل دليلا مطابقا في شروط مقامية ملموسة معطاة. وبالنسبة لباختين ، فإنه لا أهمية للشكل اللساني كعلامة Signal ثابتة ومساوية لنفسها دائما. وإنما تكمن أهميته في كونه دليلا متغيرا باستمرار ومرناً (22).

كما أن مايهم المخاطَب هو فَهْمُ الشكل اللساني في سياق ملموس محدد وفهم دلالته في فعل قولي مُعْطًى ، أي أن الأمر يتعلق بإدراك خاصيته الجديدة لا مطابقته للمعيار فحسب. إن العنصر الذي يجعل من الشكل اللساني دليلا هو قابليته للتغير الخاص وفهم الكلمة في معناها الخاص ، أي الامساك بالاتجاه الذي أُسْنِد إلى الكلمة من قبل سياق ومقام محددين (23).

وعليه ، فلا يمكن لأي خطاب أن يُدْرَسَ خارج الايديولوجيا وخارج بنية فعل القول لأن الشكل اللساني شكل مِطْوَاعٌ تبعا لارادة المخاطِب أو تبعا لتأويل المخاطَب أو وفق شروط إنتاج الكلام وشروط تأويله وفهمه الخارج ـــ لسانية.

وباختصار ، فإن الدليل ليس كيانا مجرداً ، وإنما هو كيان ملموس ، أو أنه كيان مزدوج : فهو مجرد من جهة وملموس من جهة ثانية. غير أن طرفه الملموس هو الطرف الأهم

(19) نفسه. نفس الصفحة.
(20) نفسه. ص 31
(21) نفسه. ص 41
(22) نفسه. ص 99
(23) نفسه ص 100 ـــ 101

من جهة نظر الممارسة. أما الطرف الأول فلا يعدو أن يكون مظهرا إجرائيا نظريا إذ بواسطته يتم تحديد الوحدات.

وفي نفس الاطار ، يرى شارودو أن الدليل ليس عبارة عن «وحدة معنى مستقلة» لأنه ممتلىء أيضا بمعرفة تتعلق بكل فعل كلامي. ولذلك ، «فلا وجود للدليل في اللسان» ، بل إنه «لا يوجد إلا في الخطاب» (24). إن للدليل قيمة مزدوجة : فالدليل اللساني يَمْثُل أمامنا ، من جهة نظر محتوى معناه ، باعتباره كيفية مرجعية وظيفية. وتُسْتَخْرَجُ الكيفية المرجعية من قيمة الدليل التعيينية التي تسند معنى إلى جزء من العالم الطبيعي... أما الكيفية الوظيفية فتُسْتَخْرَجُ من قيمة الدليل الاستعمالية والخاضعة لعالم خِطَابي معيّن. وخلاصة الأمر تقتضي بألا وجود لأحادية معرفية لدليل معين وألا وجود لتعددية معرفية حول دليل معين ، وإنما هناك تعددية معرفية لأننا نواجه عدة دلائل (25).

5. مفهوم الدّليل عند تشارلز سندرس بورس C.S Peirce

قبل تقديم تعريف الدليل عند بورس لا بد ، أولا ، من تقديم تحليل المقولات العامة التي يقوم عليها تعريفه للدليل. وفي هذا المضمار ، يميز بورس ثلاثة عوامل تتميز فيما بينها بواسطة ثلاث نمطيات يَتَلَبَّسُهَا الوجود وهي :

1 ـــ العالم الأول ويشتمل على كل شيء يوجد وجوده فيه ، إلا أن ما يوجد في هذا العالم ينبغي أن يكون حاضرا في ذهن وحيد أو يمكنه أن يكون حاضرا على تلك الهيئة بوجوده الكلي. ويطلق بورس على أشياء هذا العالم : الأفكار Idées أو الممكنات Possibles. ويُشْتَرَطُ في هذه الأفكار أو الممكنات أن تكون مبهمة (26). إن الأمر يتعلق ، إذن ، بنمط وجود الامكان الكيفي الموجب (27). والأولية Priméité التي تطلق على هذا العالم هي : «نمط الوجود الذي يكمن في أن ذاتا هي ماهي بشكل موجب دون اعتبار أي شيء اخر. ولذلك فلا يمكنها أن تكون غير الامكان possibilité (28) . فالحمرة ، مثلاً ، قد كانت ، قبل العثور على شيء أحمر في الكون ، عبارة عن إمكان كيفي موجب. إن الحمرة في ذاتها ، حتى لو تجسدت ، هي بمثابة شيء موجب وخصوصي (29).

(24) Eléments de sémiolinguistique P. 26

(25) نفسه. ص 27

(26) Ecrits sur le signe P.51

(27) نفسه ص 69

(28) نفسه ص 70

(29) نفسه. نفس الصفحة

يُسْنِدُ بورس الأولية الى موضوعات خارجية أي أنه يفترض أن لها في ذاتها طاقات يمكنها ، أوْ لَايُمْكِنُهَا ، أن تَتَحَيَّنَ actualisées (30). إن الأول Le premier هو الوجود في ذاته و«لايحيل على أي شيء ولا يستلزمه أي شيء» (31). وبذلك ، فالأول ينبغي أن يكون حاضرا ومباشرا وطريا وجديدا واستهلاليا initial وأصليا وعفويا وحرا وحيويا وواعيا. إنه سابق على أي توليف synthèse وأي تمييز ، ولا يملك وحدة ولا أجزاء ، ولا يمكن أن يُفَكَّر فيه بصورة متمفصلة (32).

إن الأول هو الوعي المباشر (33).

وتشتمل هذه المقولة الأولى على كيفيات الظواهر مثل : أحمر ومر ومُتْعِب وصلب (أوشاق) ومؤسف ونبيل...(34) والأولية هي مقولة الاحساس Sentiment والكيفية qualité (35).

2ـ العالم الثاني وهو ، أولًا ، عالم الموضوعات objets التي يكمن وجودها في ردود أفعالها الخام ، وهو ثانيا عالم الوقائع (الأفعال والأحداث والكيفيات الخ...) المتعلق بهذه الموضوعات. والموضوعات ، عند بورس ، هي الأشياء أو ، بصورة أقل التباسا ، الموجودات Existants ، ويطلق بورس على الوقائع التي لهاصلة بالموضوعات الوقائعَ (36) . إن هذا النمط هو نمط وجود موضوع ثان ، ويتعلق الأمر بالتَّحْيينِ ، ويبدو تحيين الحدث كامنا في علاقاته مع عالم الموجودات ذلك أن هذا التحيين يشترط حدوث واقعة في مكان وزمان معينين (37).

إن الثاني Second هو المطلق الأخير ، وهو ، بشكل أدق ، مالا يمكن أن يكون بدون الأول ، ويوجد في الوقائع بصفته غَيْرِياً وعلاقة ووجوبا وأثراً وتعلقا واستقلالية ونفيا وورودا occurrence وواقعا ونتيجة. ولا يمكن لأي شيء أن يكون غيريا وسالبا أو مستقلا بدون أولي premier يصبح هذا الشيء ، بالنسبة إليه ، غيريا وسالبا أو مستقلا. إن الثاني يتحدد ويَتَرَسَّخُ بواسطة الأول. ونعثر على الثانوية Secondéité في الورود occurrences (38). إن الثاني هو الشيء الميت الخارجي (39).

(30) نفسه. نفس الصفحة
(31) نفسه. ص 72
(32) نفسه. ص 72 ـ 73
(33) نفسه. ص 76
(34) نفسه. ص 80
(35) نفسه. ص 83
(36) نفسه. ص 52
(37) نفسه. ص 69 ـ 70
(38) نفسه. ص 73
(39) نفسه. ص 76

هكذا يبدو أن المقولة الثانية تتضمن الوقائع المجسدة ، ذلك أن الحدث فردي لأنه يقع هنا والآن. وتتعلق الوقائع بالذوات التي هي جواهر مادية (40). إن الثانوية Secondéité هي مقولة التجربة والصراع والواقعة (41).

3 ـــ العالم الثالث ويحتوي على تَكَائُنٍ co-^etre كل ماهو ضروري بطبيعته أي العادة أو القانون أَوْ أي شيء قابل لأن يُعَبَّر عنه في قضية كلية. ويطلق بورس على موضوعات هذا العالم الضروريات Nécessitants ، ويشمل كل ما يمكننا معرفته حينما نفكر منطقيا (42). ويتحكم ، إلى حد ما في الواقع ، قانون في الأحداث المستقبلية ، وإذن فإن لهذه الأحداث نزوعا نحو التوافق مع قاعدة عامة. إن ما يطلق عليه بورس الثالثية Tiercéité هو نمط الوجود الذي يكمن في أن الوقائع المستقبلية للثانوية ستكتسي طابعا عاما محددا (43). إن الثالث le troisième هو ما يربط بين الأول والأخير المطلقين وينسج بينهما علاقة (44). إنه التمثيل التوسطي بين الأول والثاني (45).

إن المقولة الثالثة تحتوي على ما نسميه بالقوانين حينما نتأملها من الخارج فحسب ، أما حينما نرى وجهيْ الميدالية ، فإننا نسميها بالأفكار. والفكرة عامة (46). إن الثالثية هي مقولة الفكر pensée والقانون Loi (47).

اعتمادا على هذه المقولات الثلاث يؤسس بورس مفهومه للدليل. والدليل ، عنده ، عبارة عن شيء ما يُعَوِّضُ شيئا معينا بالنسبة لشخص معين وفق علاقة معينة أو صفة معينة. إن الدليل مُوَجَّهٌ إلى شخص معين أي أنه يخلق في ذهن هذا الشخص دليلا معادِلًا أو دليلا أكثر تطورا يسميه بورس مُؤَوِّلًا Interprétant للدليل الأول. ويُعَوِّضُ هذا الدليل شيئا معينا هو ما يسميه بورس بموضوع Objet الدليل (48).

إن الدليل هو كل ما يُبَلِّغ تصورا محددا عن موضوع (49) ، وهو كل ما يحدد شيئا ما آخر (مؤوِّلَهُ) ليحيل على موضوع يحيل عليه هو نفسه (موضوعه) بنفس الشكل ، ويصبح المؤول بدوره دليلا وهكذا دواليك (50). والدليل أو الممثِّل representamen هو بمثابة أول ينسج

(40) نفسه. ص 81
(41) انظر ص 92 ـــ 97 من المرجع السابق
(42) نفسه. ص 52
(43) نفسه ص 70 ـــ 71
(44) نفسه ص 74
(45) نفسه. ص 76
(46) نفسه ص 82
(47) انظر ص 98 ـــ 105 من نفس المرجع
(48) نفسه ص 121
(49) نفسه ص 116
(50) نفسه ص 126

علاقة مع ثان يسمى موضوعه ، وهي علاقة ثلاثية أشد أصالة بحيث يمكنها تحديد ثالث يسمى مؤوله ، وذلك بأن ينسج مع موضوعه نفس العلاقة الثلاثية التي ينسجها هو ذاته مع هذا الموضوع ذاته (51). وهذه الذات التي تمثِّل يطلق عليها بورس الدليل أو الممثِّل (52). ويعرف بورس الممثِّل باعتباره ذاتاً لعلاقة ثلاثية مع ثان يسمى **موضوعه** بالنسبة الى ثالث يُسَمَّى **مؤوله**. وهذه العلاقة الثلاثية هي ما عليه بحيث إن الممثل يحدد مؤوله وذلك بأن ينسج نفس العلاقة الثلاثية مع نفس الموضوع بالنسبة الى مؤول ما (53). فالممثل هو كل ما ينطبق عليه التحليل حينما نرغب في اكتشاف حقيقة الدليل في الجوهر (54).

إن الممثل يمثل شيئا معينا. وهو الصورة الصوتية أو الصورة المرئية إذا كان الأمر يتعلق بكلمة معينة. ولأنه أول ، فهو عِمَادُ fondement الدليل بما هو دليل بغض النظر عن علاقته مع موضوعه. إنه ناقل الدليل من زاوية مظهره الثاني (55). والعماد ، بالنسبة لبورس ، هو جهة النظر أو الطابع الخصوصي اللذين يؤوَّل بموجبهما الدليل ــ الناقل بوصفه دليل موضوعه. إلا أن العماد ليس الدليل ــ الناقل لأن للدليل ــ الناقل عدة خاصيات غير مميزة فيما يتصل بوظيفته كدليل. ومن شأن المثال التالي أن يسمح لنا بتوضيح ما يتوخي بورس إيصاله الى الأذهان : يمكنني أن أستخدم عَيِّنَةً من الألوان دليلًا للون الصباغة التي أود اقتناءها ، ويمكن لهذه العينة أن تكون مربعة أو مستديرة. ويمكنها أن تكون من ورق أو من مادة لينة. هذا كله ليس مميزا بالنظر الى وظيفة العينة في الدليل. فلون العينة وحده هو الذي يشكل العماد لأن اللون هو جهة النظر التي يمكن ، بفضلها ، تأويل العينة كدليل للون الصباغة التي أود اقتناءها (56).

وأما موضوع الدليل فهو غير مجسد ، وهو ضروري لتبليغ أي إخبار (57). ويمكنه أن يكون قابلا للادراك أو قابلا للتخيل فحسب بل وغير قابل له (58). إن الموضوع هو ما يمثله الدليل. وهو ليس بالضرورة شيئا أو حدثا أو وضعاً ما ، ولا يعرِّف الممثل بالموضوع ولا يتعرف عليه (59).

(51) نفسه ص 147
(52) نفسه ص 116
(53) نفسه ص 117
(54) نفسه ص 116
(55) Deledalle. théoric et pratique du signe P. 66.
(56) Savan.la seméiotique de C.S. Peirce in langages 58 P. 13
(57) Ecrits sur le signe P. 123-124
(58) نفسه. ص 122
(59) Deledalle. Théoric p. 66-67
(60) Ecrits sur le signe P. 128 — 130

أما المؤول فهو التوسط بين الممثل والموضوع. إنه المدلول الخاص للدليل والحصيلة أو الأثر (60). وتجدر الاشارة هنا إلى أنه لا ينبغي الخلط بين المؤول والشخص الشارح interprète لأن الدليل عند بورس يحيل على دليل.

نخلص من هذا التعريف للدليل إلى أن الدليل البورسي عبارة عن شبكة من العلاقات تنقاد الى أن تُحَلَّل إلى أطراف ثلاثة في الأبعاد الأساسية لهذه العلاقات. وهكذا سيكون الدليل ، بالنسبة الى بورس ، حصيلةَ علاقة بين ثلاثة أطراف (61). إن الدليل ، «منظورا إليه في ذاته» ، أداة ممكنة لانجاز الدلالة والتواصل ، ولاترقى هذه الأداة أو «الممثل» ، في الحقيقة ، الى غائيتها السيميوطيقية إلا بفضل علاقة دقيقة مع «موضوع» معين ، أي ذلك الذي يحيل عليه الدليل. إلا أنه لا يمكنُ لأي دليل معيَّن لموضوع أن يخبرني بأي شيء عن هذا الموضوع اعتمادا فقط على خاصياته وعلى علاقته مع الموضوع وحدها. ولكي يكون بمقدور الدليل تحقيق هذه الدلالة وهذا التواصل ، فإنَّ عليه أن يستدعي طرفا ثالثا هو مؤوله (62). ويتضح من ذلك أن الممثل يشكل مستوى الأولية ، وأن الموضوع يشكل مستوى الثانوية ، بينما يشكل المؤول مستوى الثالثية. وإذا أردنا أن نمثل لذلك ، سنقول مع أنريكو كارانتيني Enrico carontini : إن الدليل اللفظي «أب» باعتباره أداة (ممثلا) هو مجموعة من الأصوات المُبَنْيَنَة بشكل مخصوص. ولا يمكن لهذه الأصوات أن تعيِّن لي شيئا آخر سواها إلا بمقدرا إحلالها محل شيء آخر — إحلالها محل تصور دقيق هو تصور الأب. وإذا ما بقيتُ داخل هذه العلاقة البسيطة بين مجموعة من الأصوات وتصور ، فإنه لن يكون باستطاعتي أبدا أن أفهم ، في الحقيقة ، دلالة هذا التصور. فلا بد من أن ألجأ ، إذن ، إلى مجموعة متعددة ومعقدة من الدلائل الأخرى ، أي تلك المجموعة من الدلائل التي تُعَرِّف ، في لغة محددة ، علاقات القرابة. إن هذه الوحدة الاستبدالية اللسانية هي التي تشكل مؤولا من مؤولات الدليل «أب» (63).

وفيما يتعلق بالموضوع يميز بورس موضوعين : موضوع غير مباشر médiat وموضوع مباشر immédiat. والموضوع غير المباشر هو الذي يوجد خارج الدليل ، بينما يوجد الموضوع المباشر داخل الدليل. إن الموضوع غير المباشر هو الموضوع الموجود خارج دليل ما ويسميه بورس الموضوع الدينامي dynamique الذي على الدليل أن يشير إليه تلميحا. وهذا التلميح ، أو مادته ، هو الموضوع المباشر. ويمكن القول إن كلا من الموضوعين قابل لأن يتلبَّس نمطا من الأنماط الثلاثة ، بحيث يمكن للموضوع الدينامي أن

(61) Carontini. l'action du signe P.8

(62) نفسه. نفس الصفحة

(63) نفسه. ص 8 — 9

يكون **ممكنا** (64) ، وفي هذه الحالة ، يكون الدليل تجريديا. مثال ذلك كلمة **جَمَال**. وحينما يكون الموضوع الدينامي بمثابة ورود (أي شيء موجود أو واقعة واقعية أو مستقبلية) ، فإن الدليل يسمى بالدليل الملموس. مثال ذلك السرد المكتوب بخصوص سلسلة من الأحداث. أما إذا كان الموضوع الدينامي للدليل ضروريا nécessitant ، فإن الدليل جَماعي Collectif (65). وإذا كان الموضوع المباشر «ممكنا» possible ، أي إذا كان الموضوع الدينامي معيَّنا بواسطة كيفياته ، فإن الدليل وصفي descriptif؛ وإذا كان الموضوع المباشر ورودا ، فإن الدليل تعييني désignatif؛ وإذا كان الموضوع المباشر ضروريا nécessitant ، فإن الدليل رابطي copulant (66).

إن الموضوع الدينامي ، إذن ، موضوع يوجد خارج الدليل ، أي أنه ليس معطى ، بشكل مباشر ، في الممثل وإنما هو حصيلة معرفةٍ حصلنا عليها بفضل عمليات سيميوطيقية سابقة أخرى (67). ويمثل بورس لذلك بـ «الشمس زرقاء» التي تحتوي على موضوعين : الموضوع الأول هو الشمس التي ينبغي على المتكلم والمتلقي أن يكونا على دراية مسبقة بشيء منها حتى يمكنهما الحديث عنها (الطبيعة الفلكية والفيزيائية للشمس وعلاقتها بالأرض والنظريات المختلفة التي تحدد نمط هذه العلاقة + ماقاله الشعراء عن الشمس. الشمس تلمع وتدفىء ، تغيب أحيانا ، تَبزغ في الصباح لتغيب في المساء ، الخ...). إن هذه المجموعة من المعارف وغيرها المتعلقة بموضوع الشمس تشكل الموضوع الدينامي لهذه القضية proposition . أما الموضوع الثاني أي كون الشمس **زرقاء** ، فهو معرفة فورية تضاف الى مجموعة معارفنا المذكورة سابقا. وهذا الموضوع الثاني ، أي صفة الزرقة (واقعية أو متخيلة) هو ما يشكل الموضوع المباشر. إنه ما يضيفه الممثل بفضل توسط المؤول من معرفة إضافية إلى الموضوع(68).

كما أن المؤول ، عند بورس ، ينقسم الى عدة أقسام :

□ فهناك ، أولا ، المؤول المباشر والذي هو المؤول على غرار ما كشف عنه الفهم الصحيح للدليل نفسه ، وهوما يسمى ، عادة ، بدلالة الدليل (69).

□ وهناك ، ثانيا ، المؤول الدينامي والذي هو الأثر الواقعي الذي يحدده الدليل ، بصفته دليلا ، بشكل واقعي (70).

(64) Ecrits sur le signe P. 53
(65) نفسه. ص 53 — 54
(66) نفسه. ص 54
(67) Carontini. L'action du signe P. 30
(68) نقلا عن Carontini ص 30 — 31
(69) Ecrits sur le signe P. 189
(70) نفسه. نفس الصفحة

□ وإلى جانب هذين النوعين ، أفرز بورس مؤولا آخر سماه بالمؤول النهائي الذي يحيل على الطريقة التي ينزع الدليل ، بفضلها ، إلى تمثيل نفسه بنفسه باعتباره في علاقة مع موضوعه (71). ولا يمكن للنهائي أن يكون دليلا بل هو عَادَةَ (72).

□ وإلى جانب هذه الأنواع الثلاثة ، هناك المؤول المنطقي ويتعلق الأمر بالدليل الذهني. وهكذا ، إذا كان هذا الدليل من نوع عقلي — وهو كذلك بالضرورة — فإنه ينبغي أن يكون له مؤول عقلي (73). وعليه ، فإن كل التصورات وكل القضايا propositions العامة هي المؤولات المنطقية الأولى (74). ويتسم المؤول المنطقي بكونه عاما بخصوص إمكانات إحالته ، وتتجمع الوقائع الذهنية ذات الاحالة العامة في الفئات التالية : التصورات والرغبات (بما فيها الآمال والتخوفات ... الخ) والانتظار والعادات (75).

□ وهناك أيضا ، المؤول العاطفي affectif ذلك أنه يوجد دائما إحساس نتتهي إلى تأويله باعتباره برهانا عن فهمنا الأثر الخاص للدليل. ويمكن أن يكون هذا المؤول العاطفي أكثر بكثير من ملكة التعرف هذه؛ وفي بعض الحالات ، يكون المؤول العاطفي هو الأثر الوحيد المدلول الخاص الذي ينتجه الدليل (76).

□ وأخيرا ، هناك المؤول الطاقوي énergétique : فإذا أنتج دليل أثرا آخر مدلولا مخصوصا ، فإنه سينتجه بواسطة المؤول العاطفي. ومن الملاحظ أن هذا الأثر الجديد يستلزم دائما جهدا معينا. ويمكن لهذا الجهد أن يكون عضليا إلا أنه يُمَارس ، في الغالب ، على العالم الداخلي ، فيكون بذلك جهدا ذهنيا. ولا يمكنه أن يكون ، أبدا ، دلالة تصور عقلي لأنه فعل مخصوص بينما التصور ذو طبيعة عامة (77) إن تصور هذه المؤولات الستة مرتبط بالمقولات الثلاث إذ يحيل كل مؤول على مقولة. فالمؤول المباشر والمؤول العاطفي يحيلان على الأولية ، والمؤول الدينامي والمؤول الطاقوي يحيلان على الثانوية ، والمؤول النهائي والمؤول المنطقي يحيلان على الثالثية (78).

ويعرِّف بورس اشتغال المؤول وفق سيرورة ذات ثلاثة أبعاد متنافرة ومتكاملة فيما يرى انريكو كارانتيني مقتصرا على شرح المؤول المباشر والمؤول الدينامي والمؤول النهائي. فالمؤول المباشر أو المؤول الممثَّل في الدليل بشكل مباشر يشكل نقطة انطلاق هذه السيرورة. إن

(71) نفسه. نفس الصفحة

(72) Deledalle. commentaire in Ecrits sur le signe P. 220

(73) Ecrits sur le signe P. 130

(74) نفسه ص 131

(75) نفسه. ص 135

(76) نفسه. ص 130

(77) نفسه. نفس الصفحة

(78) Deledalle. commentaire in Ecrits sur le signe P. 221

المؤول المباشر هو ذلك الذي يسمح ب «إطلاق» الممثِّل في سيرورة العملية الترميزية. إنه لا يقترح أية معرفة ، إلا أنه يسمح بإدخال الممثل في حركة التأويل. فهو يقول لنا بخصوص دليل رسمي pictural ، لوحة مثلا ، إننا أمام رسم له هذه الخاصية أو تلك اللتان ينبغي أن تُفهَمَا حسب هذه الاحالة أو تلك. إن المؤول المباشر يجعلنا نتعرف على الممثل كممثل ويفتح أمامنا الطريق نحو مؤولات أكثر تعقيداً (79).

أما المؤولات الدينامية فهي مؤولات أكثر تعقيدا. وهي التي توفر المعلومات الضرورية لتأويل الدليل التأويل الحق. إن العلاقة التي يسمح المؤول الدينامي بوضعها بين الممثل والموضوع يمكن ، بالفعل ، أن تتنوع وفق إذا ما كان الموضوع مباشراً أو ديناميا. ففي الحالة التي يكون فيها الموضوع مباشراً ، فإن المؤول الدينامي لا يوفر غير الوقائع التي لها علاقة بالدليل نفسه. وبتعبير اخر ، لا يوفر المؤول الدينامي ذو العلاقة المباشرة مع الموضوع المباشر غير المعارف التي بمقدروها أن تكشف عما يود الدليل قوله عن موضوعه المباشر. وإذا استعدنا نفس المثال السابق ، فإن الأمر يتعلق بفهم ما يدل عليه كون الشمس زرقاء ، وبتبين إذا ما كان الأمر يتعلق باستعارة تعبر عن الحالة النفسية للمرسل أو أنه يتعلق بطريقة تصويرية للقول بأن اليوم حزين ، الخ... إلا أن المؤول الدينامي يمكنه أن يربط الممثل بالموضوع مغترفا معلوماته من سياق المعارف القبلية للموضوع. ففي حالة الموضوع الدينامي ، يغترف المؤول الدينامي معلوماته من نفس سياق الموضوع مهما كان بعده. وفي هذه الحالة ، يمكن ، إذن ، للمؤول الدينامي أن يشتغل مثل كل المعارف السابقة للموضوع أي مجموع المعارف العلمية والشعرية والأسطورية التي لها صلة بالشمس ويمكنها أن توضح بشكل أفضل هذه المعرفة الخصوصية التي تقضي بإسناد الزرقة إليه (80).

ولا بد من الاشارة هنا إلى أن المؤول الدينامي يبقى بطبعه سيرورة لا تنتهي.

وبغية توضيح المؤول النهائي وشرحه ، يرى كارانتيني ضرورة القيام بتفسير العملية المنطقية لكل من الافتراض lâbduction والاستقراء induction. وهكذا ، فإن عملية الافتراض تقضي بالاعتراف بأن التجربة التي أواجهها تجربة قابلة للفهم انطلاقا من معارفي السابقة. ويتعلق الأمر في الواقع ، بتطبيق مقولة «قبلية» على حالة نوعية بشكل ميكانيكي إلى حد ما. إننا لا ننتج ، مع الافتراض ، فعلا معرفيا حقيقيا ، وإنما نقتصر فقط على التعرف على الموضوع. والمعرفة ، هنا ، تُواجَه مع نمط تجربة جديدة ليس في مقدور المقولات المُتمثَّلة سابقا أن تقدم جوابا مُرْضيا. إن هذه التجربة الجديدة يجب عليها أن تولِّد مقولات جديدة ستُغْني المقولات السابقة الوجود (81).

(79) Carontini. l'action du signe P. 31

(80) نفسه ص 31 — 32 وانظر أيضا Deledalle. Théorie et pratique du signe P: 120

(81) Carontini. l'action du signe P. 33

إن المؤول النهائي هو ، بالفعل ، مؤول نسقي. ويمكنه أن يتخذ ثلاثة أشكال حسب إذا ماكان نسق التأويل قد وضعه الافتراض أو وضعه الاستقراء أو الاستنباط déduction. ففي الحالة الأولى ، فإن المؤول النهائي الأول عبارة عن عادة عامة تم اكتسابها بواسطة التجربة. وهي تجربة جماعية أكثر منها فردية. إنها عادة تأويل الدلائل في لحظة معطاة وفي فئة معطاة. أما المؤول النهائي الثاني ، فهو عادة مخصوصة مثل قدرة عالم النباتات على تصنيف نبتة جديدة... الخ. ويختلف المؤول النهائي الأول عن المؤول النهائي الثاني لا لأنه عادة عامة فقط ، بل لأنه ليس مُراَقَباً بشكل علمي أي بشكل تجريبي ، على عكس العادة المخصوصة. إن المؤول النهائي الأول يعود الى التعميم الذي يمكنه أن يكون صحيحا ، إلا أنه يكون كذلك بدون إثبات مضاد. وتندرج في هذه الحالة كل الأفكار المسبقة العنصرية والدينية والذهنية وكل الايديولوجيات.

أما المؤول النهائي الثالث فهو المؤول النسقي بامتياز. إنه خارج السياق : إذ لا يكتسب أية تجربة لكي يوجد. فهو ، على مستوى القرار ، استنباطي كما هو حال كل الأنساق الشكلية ، سواء كان ذلك انطلاقا من المؤول النهائي الثاني مثل حالة الفرضيات الكبرى الفيزيائية ، أو كان انطلاقا من المؤول النهائي الأول مثل النظريات البنيوية ونظريات التحليل النفسي (82).

وبغية فهم هذه النسقية التي اقترحها دولودال Deledalle فهما جيدا ، لابد ، في رأي كارانتيني ، من شرح الميكانيزمات الأساسية لعملية المعرفة عن طريق الاستدلال والتي هي الاستقراء والاستنباط والافتراض. فالاستقراء يَسْتَدِلُّ على قاعدة انطلاقا من حالات خاصة. فإذا كان شيء ما صادقا بالنسبة لعدد مهم من الأشخاص ، فهو صادق بالنسبة للفئة كلها التي ينتمي إليها هؤلاء الأشخاص. أما الاستنباط فيحدث حينما ننطلق من مجموعة من المعارف النسقية والصارمة المكتسبة بواسطة عملية الاستقراء المنطقية ، ويحدث الاستنباط حينما يمكننا التوصل الى معارف جديدة دون اللجوء الى تجارب جديدة.

إن الاستنباط هو تطبيق قاعدة عامة على حالة خاصة. أما الافتراض فيحدث، حسب تأويل دولودال، حينما نفترض أن حالة هي بمثابة تطبيق قاعدة عامة وحينما نتبنى هذا الافتراض دون التحقق منه (83).

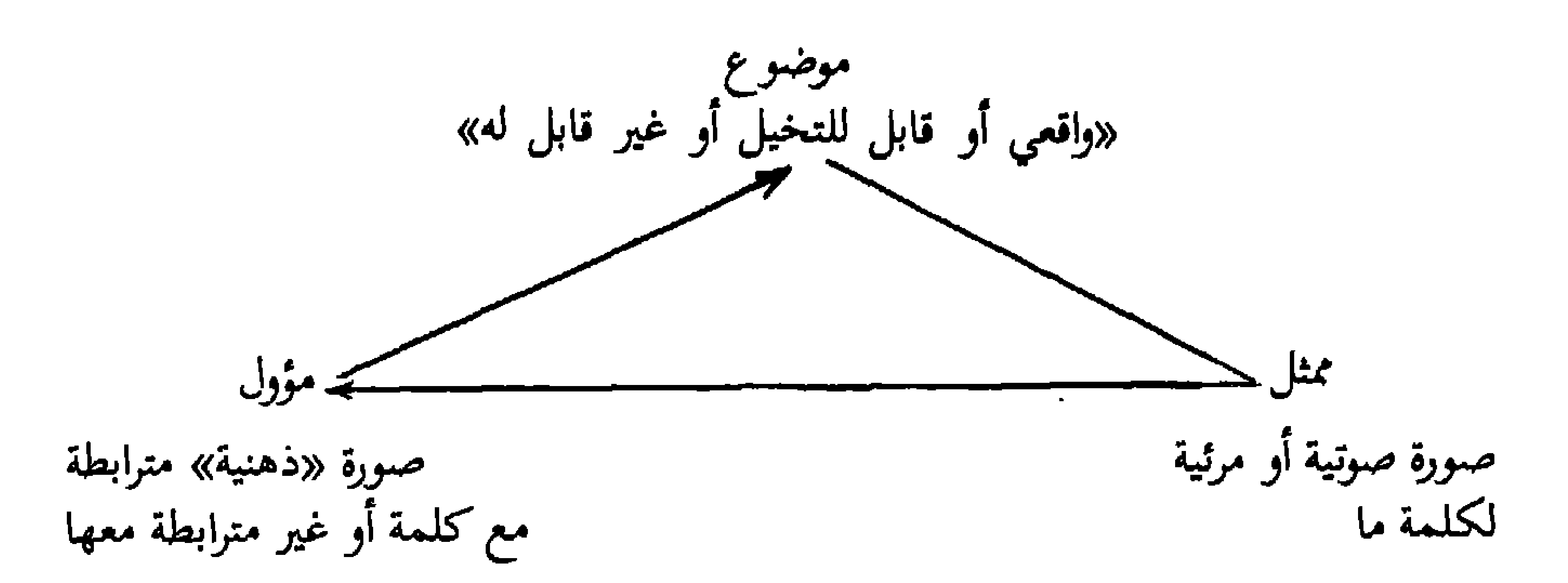
ومهما كانت هذه المؤولات، فإن غائية هذه العملية (عملية المؤول) تكمن في وضع معنى، أي إسناد موضوع الى ممثل...» (84).

(82) Deladalle. théorie et pratique du signe P. 120 — 121

(83) Carontini. l'action du signe P. 35

(84) Bruzy et autres. la sémiotique phanéroscopique de charles S.Peirce. In langages N°58 P. 39

يتشكل الدليل، عند بورس، كما هو واضح، من علاقة ثلاثية. ويمكن أن نمثل له بالرسم الذي وضعه دولودال (85) :



ويتمحور مفهوم الدليل البورسي حول ما يسميه بالسيميوزيس Sémiosis . والسيميوزيس عبارة عن فعل أو تأثير يستلزم تعاون ثلاث ذوات مثل الدليل وموضوعه ومؤوله. ولا يمكن لهذا التأثير الثلاثي العلاقة أن يكون، بأي شكل من الأشكال، قابلا لأن يختزل الى أفعال بين أزواج paires (86). ويُمَارَسُ فعل الدليل إما في العالم الداخلي ـــ عالم الفكر ـــ وإما في العالم الخارجي. ويعتبر فعل الدليل، في العالم الخارجي، دليلًا وحاملا **لمعنى**، بينما يعتبر، في العالم الداخلي، رمزا symbole وحاملا **لدلالة**. (87). ومن المفيد هنا أن نلاحظ مع كارانتيني أن فعل الدليل أو السيميوزيس الذي يشكل، في كل استلزاماته وتصنيفاته المتعددة، الموضوعَ الرئيسي لكل الأبحاث البورسية، ينبغي أن يُفْهم في إطار المقولات العامة التي توضّح اشتغال الوجود وأنماطه الخاصيْن بكل التجربة الانسانية. فما يجربه الانسان وما ينتجه ينبغي أن يُفْهم باعتباره حصيلة تفاعل دقيق بين ثلاثة مستويات خصوصية (88) أي الأولية والثانوية والثالثية.

واضح أن مفهوم الدليل يقوم على علاقة ثلاثية لا يمكن، أبدا، اختزالها إلى علاقة ثنائية. وهذه العلاقة المثالية المشكّلة من ثلاثة مكونات علاقة أصيلة، عند بورس. والعلاقة الثلاثية علاقة شكلية إذ ليس هناك، في ممارسة الدليل، موضوعٌ للاحالة وإنما هناك اثنان، وليس هناك مؤول وإنما هناك ثلاثة مؤولات (89).

(85) Deledalle. commentaire in Ecrits sur le signe P. 229
(86) Ecrits sur le signe P. 133
(87) Deledalle, commentaire in Ecrits.... P. 223
(88) Carontini, l'action du signe P. 6 — 7
(89) Deledalle. théorie... P. 69

إن أي دليل لا يمكنه إلا أن يكون حصيلة علاقة بين ثلاثة أطراف. وهنا لا بد من القول بأن هذه البنية العلاقية للدليل تنعكس، أيضا، على مستوى المكونات المختلفة للدليل؛ وهكذا يمكن أن يحلّل كل من الممثل والموضوع والمؤول في أوليته وثانويته وثالثيته. وهذا ما يسميه بورس بثلاثيات الدليل (90).

لقد صنف بورس الدلائل الى ثلاثيات باعتبار أن الدلائل قد تكون أولية أو ثانوية أو ثالثية. ذلك أن الممثل (م) والموضوع (و) والمؤول (أ)، باعتبارها هي أيضا دلائل، قابلة لأن تحلّل الى ممثل وموضوع ومؤول (91).

1 ـــ البعد الأول وهو بعد الممثل، ويحيل على الدليل بما هو دليل. إنه البعد النحوي حسب بورس أو التركيبي حسب تشارلز موريس Charles Morris (92). ويتعلق الأمر، هنا، بالدليل منظورا إليه في علاقته مع ذاته، والدليل في ذاته مجرد كيفية (93). إلا أن الكيفية يمكن أن تعتبر مجددا بصفتها أولى : أي كيفية بدون وجود؛ وبصفتها ثانية : أي كيفية موجودة؛ وبصفتها ثالثة : أي قانونا (94).

وتناسب هذه الأنماط الثلاثة للممثل ثلاثة أنواع ناقلة للدليل، ويمكن العثور عليها وفق العلاقة التي تنسجها الممثّلات Les representamen مع مقولات الأولية والثانوية والثالثية (95) :

□ الممثل في علاقته مع الممثل (م.م) وهو عبارة عن دليل ـــ كيفية qualisigne أي كيفية بوصفها تشكل دليلا. ولا يمكن لهذه الكيفية، في الواقع، أن تشتغل بوصفها دليلا قبل أن تتجسد، إلا أن هذا التجسيد لا علاقة له بطابعها الدليلي (96). إنه دليل متجسد في كيفية (97). والدليل باعتباره كيفية هو التعبير الخالص عن الأولية (98). إن الدليل ـــ الكيفية ليس دليلا عمادا إلا بكيفيته وحدها وبمعزل عن كل علاقة فضائية أو زمانية مع موضوعه. ويمكن أن نمثل للدليل ـــ الكيفية بما يلي : لون العينة؛ إذا كنتُ أعلم السباحة لشخص ما، فإن حركات ذراعي وجسمي كيفية يمكن تأويلها في ذاتها كدليل ـــ عماد Signe-fondement لحركات المتعلم المتماثلة كيفيا؛ المحاكاة؛ الميم؛ الانعكاس. والدلائل ـ الكيفيات هي مصدر الاستعارة والتماثل والمشابهة (99).

(90) Carontini P. 9
(91) Deledalle. théorie P. 70
(92) نفسه. نفس الصفحة
(93) Ecrits sur le signe P. 138
(94) Deledalle. commentaire P. 230
(95) Deledalle. théorie P. 70
(96) Ecrits sur le signe P. 138 et deledalle. théorie P. 72
(97) Deledalle. commentaire P. 230
(98) Deledalle. théorie P. 72
(99) Savan. La séméiotique de charles S. Peirce in langages N°58 P. 14

□ الممثل في علاقته مع الموضوع (م.و) وهو دليل مفرد Sinsigne. إنه الممثل باعتباره ثانيا أو موضوعا، وهو شيء أو حدث موجود واقعي مُشَكَّل للدليل (100) إنه موضوع أو حدث فردي (101). ولا يمكنه أن يكون دليلا إلا بكيفياته بحيث ينطوي على الدليل ــ الكيفية أو عدة دلائل ــ كيفيات، إلا أن هذه الدلائل الكيفيات لا تشكل دليلا إلا حينما تتجسد في الواقع (102). وعليه، فالدليل ــ المفرد لا يمكنه أن يوجد إلا بكيفياته (103). ويمكن أن نمثل للدليل المفرد بالنصب التذكاري والصورة الشمسية وعَرَض مرض معين (104). إن طلقة المسدس الفجائية التي تؤذن بانطلاق سباق عبارة عن دليل مفرد، والكلمات التي نستعملها في الاحتفالات الطقوسية دلائل مفردة، وسلطة الكلمات المستعملة في الزواج أو حينما نقسم أمام محكمة أو حينما ينطق قاض بالحكم... كل ذلك يرتبط بالسياق وبوضع الشخص الذي يتلفظ بهذه الكلمات، ويرتبط أحيانا بالتنغيم الذي يؤديه. هذه الدلائل الطقوسية والانجازية performatifs ليست، في الجوهر، سوى دلائل مفردة (105).

□ الممثل في علاقته مع المؤول (م.أ)، وهو عبارة عن دليل ــ قانون légisigne. إنه الممثل بصفته ثالثا أو مؤولا. وهو القانون الذي يشكل دليلا. وهذا القانون من وضع الناس عادة. وعليه، فكل دليل تعاقدي هو بمثابة دليل ــ قانون. والدليل ــ القانون ليس موضوعا مفردا، وإنما هو نمط عام يجب أن يكون دالا (106). إن كل أنساق الكتابة، كيفما كانت، مادامت تخضع لقواعد تكوين واستعمال، هي دلائل ــ قوانين. وحينما نقول عن صفحة كتاب ما إنها تحتوي على 250 كلمة، تكوّن «le» عشرين منها، فإن «الكلمة» دليل مفرد. أما باعتبار الطريقة التي نستعمل بها، في أغلب الأحيان، لفظة «كلمة»، فإننا حينما نقول إن «le» «كلمة» و «un» «كلمة» أخرى، فإن «الكلمة» دليل ــ قانون. إلا أننا لا نكتب الدلائل ــ القوانين أو نقرأها أو ننطق بها أو نسمعها، بل نكتب نُسَخها répliques ونقرأها ونسمعها وننطق بها (107). إن كلمة «دليل ــ قانون» المطبوعة على هذه الصفحة وفي السطر الذي قرأها فيه القارىء في الكتاب الموجود بين يديه هي بمثابة نسخة مفردة وحيدة للكلمة «دليل ــ قانون» المستعملة كممثل ثالث. ولأن الكلمة «دليل ــ قانون» المكتوبة هنا نسخة مفردة ووحيدة، فإنها دليل مفرد. وبما أننا رأينا أن الدليل المفرد هو أيضا، تحقيق

(100) Deledalle. théorie.... P. 72 Ecrits sur le signe P. 139
(101) Deledalle. théorie.... P. 72
(102) Ecrits.... P. 139
(103) Deledalle. commentaire... P. 230
(104) Deledalle. théorie.... P. 72
(105) Savan. op. cit P. 14 — 15
(106) Deledalle. théorie.... P. 72 Ecrits... P. 139
(107) Deledalle. théorie... P. 72 — 73

لدليل ـــ كيفية، فإن كل دليل مفرد ليس نسخة (108). إن اللغات والإشارات والبنيات الثقافية والاجتماعية لمجتمع معين هي دلائل ـــ قوانين، وكل مثال هو دليل لأن الأمر يتعلق بعينة ما، وبنسخة لقاعدة (109).

وبعد تفصيل القول حول هذه الدلائل، لابد من التنبيه على أنه من الخطإ الاعتقاد بأن الدلائل ـــ الكيفيات والدلائل المفردة والدلائل ـــ القوانين عبارة عن ثلاث وحدات متميزة. فالأمر يتعلق بوظائف ثلاث متميزة تتخذ عدة مظاهر يمكن لأي شيء، بفضلها، أن يصبح عماد دليل. إذ يمكن لنفس الشيء الواحد أن يكون، في الآن ذاته، دليلا ـــ كيفية من زاوية نظر معينة، ودليلا مفردا من زاوية نظر أخرى، ودليلا ـــ قانونا من زاوية نظر ثالثة. (110).

2 ـــ البعد الثاني وهو بعد الموضوع. ويخص الأمر علاقة الدليل مع موضوعه. إنه البعض الوجودي أو العملي (111). ويتكون هذا البعد من ثلاث أنماط هي أنماط الموضوع. وتعني هذه الأنماط الثلاثة نوعية العلاقة التي ينسجها الدليل مع موضوعه الموجود في علاقة مع الممثل بوصفه أوّلا، وفي علاقته مع الموضوع بوصفه ثانيا، وفي علاقته مع المؤول باعتباره ثالثا (112). والدليل هنا عبارة عن موجود (113) :

□ الموضوع في علاقته مع الممثل (و ـــ م) ويتعلق الأمر بالأيقونة icône. والأيقونة دليل له الخاصية التي تجعل منه ذا دلالة ولو كان موضوعه غير موجود. إنها الدليل الذي يفتقد، على الفور، الخاصية التي تجعل منه دليلا إذا ما ألغي موضوعه، إلا أنه لا يفتقد هذه الخاصية لو لم يكن هناك مؤول (114). إن الايقونة صورة تستنسخ نموذجا. وهكذا، فإن الكيفية أو الفرد الموجود أو القانون يمكن اعتبارها أيقونات لأشياء معينة مادامت تتشابه مع هذه الأشياء وما دامت تُستعمل دلائل لهذه الأشياء (115). والدلائل ـــ الكيفيات، مثل الاحساس الناتج عن إنجاز قطعة موسيقية، والدلائل المفردة... أيقونات، إلا أن الأيقونة ليست دليلا ـــ كيفية أو دليلا مفردا، فالأيقونة تحيل على موضوع ما، والدليل ـــ الكيفية والدليل المفرد يحيلان على نفسهما، والأيقونة صورة موضوع ما، والدليل ـــ الكيفية والدليل المفرد كيفيّان مكوِّنة للصورة، باعتبارها كيفيات بالنسبة للدليل الكيفية، وباعتبارها مجسدة في صورة بالنسبة

(108) نفسه. ص 73
(109) Savan. op.cit. P. 15
(110) نفسه. ص 15
(111) Ecrits.. P. 140, théorie... P. 70
(112) Deledalle. théorie... P. 73
(113) Ecrits... P.140
(114) نفسه. نفس الصفحة، وانظر أيضا Deledalle. théorie P. 73
(115) Deledalle. théorie.... P. 74

للدليل المفرد. إلا أنه يمكن لممثل أيقونة أن يكون دليلا ــ كيفية أو دليلا مفردا أو دليلا ــ قانونا (116).

وتتفرع الأيقونة الى الصور images أي الأيقونات التي هي جزء لا يتجزأ من الكيفيات البسيطة، وتتفرع الى الرسوم diagrammes أي الأيقونات التي تمثل العلاقات، خاصة العلاقات الثنائية أو العلاقات المعتبرة ثنائية، وتتفرع الى استعارات أي الأيقونات التي تمثل الخاصية التمثيلية لممثل ما في تمثيله لتوازٍ في شيء ما آخر (117).

ويمكن أن نمثل للأيقونة بعينة القماش التي يُرِينِي إياها الخياط...

□ الموضوع في علاقته مع الموضوع (و ــ و) ويتعلق الأمر بالأمارة indice. والامارة دليل يحيل على الموضوع الذي يعيِّنه، لأنه في الحقيقة، متأثر من قبل هذا الموضوع (118). وتنسج الأمارة علاقة مباشرة وفاعلة مع الموضوع، وترتبط بموضوعها بواسطة المجاورة . فهي، إذن، التعبير التام عن الثانوية. وهي دليل مفرد وحيد يحيل على موضوع مفرد وحيد ذي كيفية. ولذلك، لا يمكنها أن تكون دليلا ــ كيفية. ومثال الامارة : الدخان إذ هو أمارة للنار. ولا بد من القول هنا بأن الأمر يخص هذا الدخان الذي أراه يصعد والذي يدفعني الى التنبيه عليه لكي يَقدم رجال المطافىء لاطفاء النار (موضوع الامارة) التي لم أرها ولا أشك في وجودها لأن الدخان والنار مرتبطان عضويا. وممثل الأمارة دليل مفرد أو دليل ــ كيفية. وهذا أمر واضح بالنسبة للدليل المفرد، فالعَرَض في علاقته مع ذاته دليل مفرد، وفي علاقته مع الموضوع (مرض معين) أمارة. ويمكن للضمير pronom الذي هو بمثابة دليل ــ قانون أن يكون أمارة (119).

□ الموضوع في علاقته مع المؤول (و ــ أ)، ويتعلق الأمر بالرمز symbole. والرمز دليل يحيل على الموضوع الذي يعيِّنه بفضل وجود قانون يحدد تأويل الرمز بالاحالة على هذا الموضوع (120). وهو ثالث وعام. فالرمز، إذن، دليل ــ قانون، وهو يعمل، بهذه الصفة، بواسطة نسخة ما. إن كل كلمة وكل دليل تعاقدي عبارة عن رمز.

والرمز ليس عاما فحسب باعتباره دليلا، إنه يحيل على موضوع عام ذي وجود في الحالات الخاصة التي يحددها والتي هي الحالات الموجودة لما يعيِّنه الدليل. وعليه، فالأمارة يمكنها أن تكون عنصرا مكونا للرمز. فحينما نشير للطفل بالاصبع الى كرة في السماء قائلين : «إن هناك كرة»، فإن القضية (= الجملة) رمز والذراع المنتصب نحو السماء جزء لا يتجزأ

(116) نفسه. نفس الصفحة
(117) نفسه. ص 149
(118) Ecrits.... P. 140
(119) Deledalle. théorie... P. 75
(120) Ecrits... P. 141

من الرمز، لأنه بدون الذراع المنتصب يتعذر على الرمز إمدادنا بأي إخبار. لكن إذا ما سأل الطفل : «ما معنى الكرة ؟» وإذا أجبنا «إنها شيء شبيه بفقاعة كبرى من الصابون»، فإننا نجعل من الصورة، أي الاستعارة ـــ والاستعارة أيقونة ـــ، عنصرا مكونا للرمز (121). إن الرمز ليس شيئا مفردا أي ليس دليلا مفردا لأن الدلائل الذهنية ذات طبيعة مختلطة. ويمثل الرمز، دائما، عبارة عن دليل ـــ قانون، إلا أنه لا يمكنه أن يشتغل إلا إذا ما تجسد في نسخة. والنسخة دليل مفرد في الثلاثية الأولى وأمارة في الثلاثية الثانية (122).

3 ـــ البعد الثالث وهو بعد المؤول. ويتعلق الأمر بعلاقة الدليل مع المؤول. إنه البعد المنطقي أو التداولي (123). ويتكون هذا البعد من مؤول أول ومؤول ثان ومؤول ثالث بالنظر الى نوعية العلاقة التي ينسجها الدليل مع مؤوله. والدليل هنا عبارة عن قانون عام ويعبر عن عموميته تلك بواسطة الأنماط الثلاثة التالية :

□ المؤول في علاقته مع الممثل (أ ـــ م) : ويتعلق الأمر بالخبر rhème. والخبر هو دليل يشكل، بالنسبة الى مؤوله، دليلَ إمكان كيفية أي أنه مُدْرَك باعتباره يمثل هذا النوع أو ذاك من الموضوع الممكن. ويمكن للخبر أن يمدنا بإخبار، إلا أنه لا يؤوَّل باعتباره شيئا يمدنا بإخبار معين.إنه دليل مُدرَك بوصفه يمثل موضوعه في خاصياته لاغير (124).

ويعوِّضُ الخبر الحدَّ terme في المنطق الكلاسيكي. والحد اسمُ صنفٍ أو اسمُ عَلَمَ لاغير (125)، وهو عبارة عن تابع قضوي fonction propositionnelle (126). وما يتبقى من قضية ما بعدما نحذف الموضوع هو حد (= خبر) يسمَّى مَحْمُولَه prédicat (127). فالمحمول خَبَرٌ بالضرورة (128).

إن الخبر دليلٌ بسيط أو معوِّض (129)، وهو ليس لاصادقا ولا كاذبا تقريبا مثل الكلمات منظورا إليها مفردة (130)ولا يَدَّعِي الخبر تأثره بالموجود الواقعي أو القانون الواقعي (131).

(121) Deledalle. théorie... P. 76

(122) نفسه. ص 76 — 77

(123) نفسه. ص 70 و Ecrits... ص 141

(124) Ecrits... P. 141

(125) نفسه. ص 32

(126) Deledalle. théorie... P.78

(127) Ecrits... P. 143

(128) نفسه. ص 176

(129) نفسه. ص 166

(130) نفسه. ص 33

(131) نفسه ص 142

إن المؤول الخبري دليل يسمح بفهم دلالة ممثل معين وذلك باستدعائنا لوسائله الخاصة لاغير. فحينما أريد أن أفهم شخصا ما تدل عليه كلمة شجرة في الفرنسية ــ وألجأ لهذه الغاية الى رسم للشجرة ــ فإن دلالة كلمة شجرة تُفهَم من قبل ذلك الذي لم يكن يعرفها، وذلك فقط بفضل العلاقة بين تعاقب الأصوات الذي يكوّن المؤولَ شجرة ومجموع المعارف الذي يثيره فيه رسم الشجرة. إن الخبر يحدد، إذن، بفضل بنيته القائمة في الأولية، ميكانيزم المؤول فقط على أساس الأيقونية iconicité والمشابهة simititude والمجاروة بين المؤول والموضوع (132).

وإذا أردنا أن نمثل للخبر، سننطلق من اعتبار ما يلي :

كل إنسان فانٍ

سقراط إنسان

إذن سقراط فانٍ

وهكذا، فـ «فان» في الجملة الأولى و«إنسان» في الجملة الثانية خبرانِ rhèmes.

ـ المؤول في علاقته مع الموضوع (أ ــ و) ويتعلق الأمر بالمَقُول dicent أو الدليل ــ المَقُول dicisigne. وهو دليل يشكل، بالنسبة الى مؤوله، دليلَ وجود واقعي (133). وهو يناسب على وجه التدقيق القضية الاسنادية proposition attributive. وهودليل يمدنا بإخبار يتصل بموضوع الدليل. ويشتمل، بالضرورة، على خبر، باعتباره جزءاً لا يتجزأ منه، لكي يصف كونه يشير إلى شيء ما، إلا أنه ليس سوى نحو خاص من الخبر، ورغم أنه جوهري بالنسبة الى الدليل المقول، فهو لا يشكله أبدا (134).

إن الدليل المقول دليل مدرك باعتباره يمثل موضوعه في علاقته مع الوجود الواقعي (135). إنه قضية proposition أو شبه قضية quasi-proposition (136). والقضية ليست في حاجة إلى أن تثبت أون يحكم عليها، بل يمكن أن يُتَأمَّل فيها باعتبارها دليلا قابلا لأن يُثْبَتَ أو أن يُنْفى. ويحافظ هذا الدليل نفسه على دلالته التامة سواء أثبت، واقعيا، أم لم يثبت. وإذن، فإن خاصيته تكمن في نمط دلالته، ويعني ذلك أن خصوصيته تكمن في علاقته مع مؤوله. وتنبىء القضية بأنها تتأثر، واقعيا، بالموجود الواقعي أو القانون الواقعي اللذين تحيلان عليهما. (137).

إن القضية دليل ــ مقول، والدليل المقول رمز (138).

(132) Carontini, l'action du signe P. 48

(133) Ecrits... P. 141

(134) نفسه. نفس الصفحة و Deledalle, théorie... P. 78

(135) Ecrits... P. 141

(136) نفسه. نفس الصفحة.

(137) نفسه ص 142

(138) نفسه. ص 177

والدليل المقول دليل مزدوج إخباري (139) والنوع الدليلي الذي يُبَلِّغ إخباراً (140). إن معرفة إذا ما كان دليل معين دليلا مقولا أم غير ذلك تكمن في كون الدليل المقول إما أن يكون صادقا أو كاذبا، إلا أنه لا يمدنا بسبب صدقه أو كذبه. ويبيِّن هذا أن الدليل المقول ينبغي أن يحيل، بوضوح، على شيء معين له وجود واقعي بغض النظر عن تمثيله بوصفه تمثيلا. وعلاوة على ذلك، لا ينبغي لهذه الاحالة أو العلاقة أن تبدو باعتبارها إحالة (أو علاقة) عقلية، وإنما ينبغي أن تبدو بوصفها ثانوية عمياء (141).

إن الدليل المقول ليس تقريرا assertion ولكنه دليل قادر على أنه يقرَّر être asserté. إلا أن التقرير دليل (142). وهو، في نفس الآن، جزء من موضوع الدليل المقول وجزء من مؤوله، فهو مركب من جزئين، وعليه أن يبين أن هناك ارتباطا بين جزئيه (143)، وجزءاه هما الموضوع والمحمول (144).

ويرى Carontini كارانتيني أن ما يجب تسجيله بخصوص هذا النمط الثاني من المؤول، أن ميكانيزمه، على عكس ميكانيزم النمط الأول من المؤول، يحتاج دائما إلى أن يضع الممثل الذي هو مؤوله، في إطار مقام ملموس يستلزم، على الأقل، علاقة بين هذين الطرفين. ويمكننا أن نَفهَمَ بشكل أفضل هذا النمط من المؤول حينما نوازي بينه وبين المحور المركبي في إطار السيميوطيقا السوسيرية. وبالفعل، فإن الدليل المقول يؤول مثلا ما حينما نضعه في سلسلة من الدلائل المتجاورة في الواقع، وهو يكتسب دلالته داخلها في تعارض مع المشابهة.

إنه يمكننا أن نُفهِم شخصا دلالة كلمة «شجرة» الفرنسية حينما نشير له الى مقام ملموس تتجسد فيه شجرة واقعية، مثلا شجرة التفاح هذه الموجودة في هذه الحديقة. إن الأهم، هنا، هو مفهوم السياق، ولا يهم إذا ما كان هذا السياق سياقا وجوديا وواقعيا أو أن الأمر يتعلق بسياق تذكري أو سياق لساني خالص (145).

وهكذا، فإن (1) و(2) و(3) بمعزل عن بعضها البعض عبارة عن قضايا :

1) كل إنسان فَانٍ

2) سقراط إنسان

3) إذن سقراط فَانٍ. (146).

(139) نفسه ص 166

(140) نفسه. ص 167

(141) نفسه. ص 142 و167

(142) نفسه ص 33

(143) نفسه ص 168 — 169

(144) نفسه ص 170

(145) Carontini. l'action du signe P. 48 — 49

(146) Deledalle. théorie... P. 134

ـ المؤول في علاقته مع المؤول (أ ـــ أ) ويتعلق الأمْرُ بالحجَّة Argument. وهو دليل يشكل، بالنسبة الى مؤوله، دليلَ قانونٍ (147). ولو لم يكن للاستدلال raisonnement بعدٌ نفسي لسماه بورس به. إن الحجة وسيلة للتعريف بشيء ما. إنه دليل مُدْرَك باعتباره يمثل موضوعه في خاصيته بوصفه دليلا (148). والعلاقة الحجية علاقة عقلية، وإذن، فهي إما صادقة وإما كاذبة إلا أنها تترك المجال لفحص أسباب صدقها أو كذبها (149). إن الحجة تمثل، بشكل مميَّز، مؤولها أي استنتاجها (150).

إن بورس يطابق المؤول الحجة مع «الحكم» jugement في المنطق الكلاسيكي. وهذا الشكل الثالث من المؤول ينتج ميكانيزم دلالة يفترض الوضع القبلي لمجموعة من القواعد المحددة بشكل أفضل. وإذا أحلنا، مرة ثانية، على سوسير، فإن الأمر يتعلق بما سمّاه بالترابطات أو الاستبدالات (151).

إن الحجة تسمح، إذن، بفهم دلالة ممثل حينما نضعه في إطار العلاقات التي ينسجها مع الدلائل الأخرى داخل سنن أو على وجه الدقة، داخل الأنموذج paradigme الذي ينتمي إليه. وإذا عدنا مرة أخرى الى المثال الذي سبق ذكره، فإنه يمكننا أن نُفْهِم المخاطَب دلالة كلمة «شجرة» بذكر الكلمة المعروفة لديه والمنتسبة الى نفس الحقل الدلالي الذي ينتسب اليه الدليل اللساني «شجرة» (152).

وهكذا، فإن (1) و(2) و(3) تعتبر في مجموعها حجة :

1) كل إنسان فَانٍ

2) سقراط إنسان

3) إذن سقراط فَانٍ (153).

(147) Ecrits.... P. 141

(148) نفسه ص 142 و79 .Deledalle. théorie... P

(149) Eluerd. la pragmatique linguistique P. 59

(150) نفسه. نفس الصفحة

(151) Carontini. l'action du signe P. 49

(152) نفسه. نفس الصفحة

(153) Deledalle. théorie... P. 134

ويمكن أن نمثل لهذه الأبعاد بتفريعاتها كما يلي :

	م 1	و 2	أ 3
م 1	دليل ـــ كيفية	أيقونة	خبر
و 2	دليل مفرد	أمارة	دليل مقول
أ 3	دليل قانون	رمز	حجة

يشير هذا الرسم الى تقسيمات فرعية. ولا يمكن لأي تقسيم فرعي أن يشكل، في ذاته، دليلا، لأن الدليل ثلاثي. بل إن هذه التقسيمات الفرعية هي مكونات منطقية للدليل. ونظرا لأن كل دليل يتم تعريفه من قبل علاقته الثلاثية على المستويات الثلاثة للدليل، فإن عدد أصناف الدلائل يصل الى 37 صنفا من الدلائل.

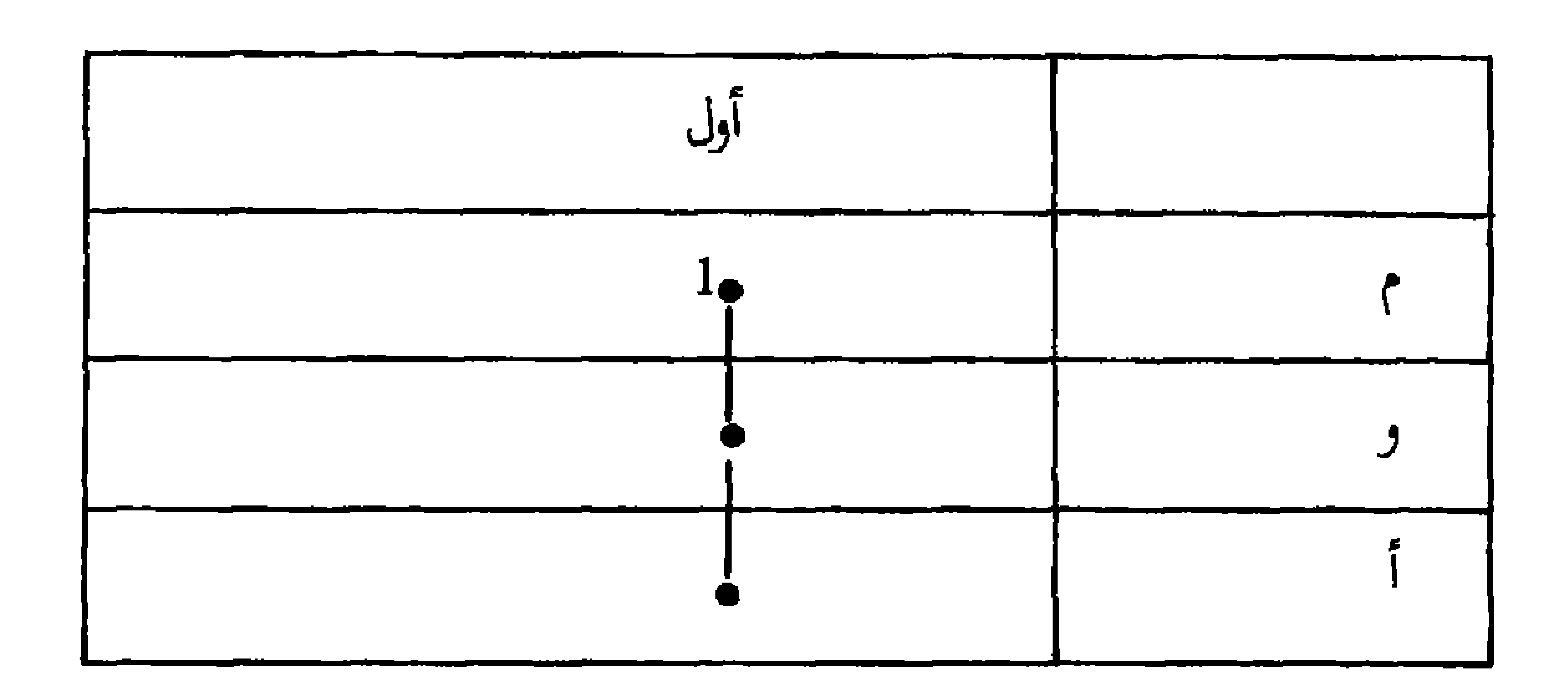
وبالنظر الى مبدإ هرمية المقولات في تطبيقها على الدلائل، فإن هناك عشرة أصناف مقبولة وصالحة. فلو قرأنا هذه اللوحة عموديا، فإنه، من الواضح، حسب دولودال، ألا وجود إلا لصنف واحد من الدلائل التي يكون الممثل فيها هو الأول (1.1، 1.2، 1.3) (154).

	أول	ثان	ثالث
م	1.1	2.1	3.1
و	1.2	2.2	3.2
أ	1.3	2.3	3.3

الثلاثيات الثلاثة للدليل (155).

(154) نفسه ص 80

(155) نفسه ص 79



صنف الأولية (156)

أما إذا كان الممثل هو الثاني، فإن موضوعه يمكن أن يكون أوّلًا أو ثانيا. وإذا كان أوّلا، فإن المؤول يحدد صنف الدلائل التالي : (2.1، 1.2، 1.3)، وإذا كان ثانيا، فإن المؤول يحدد صنفين من الدلائل : (2.1، 2.2، 1.3) و(2.1، 2.2، 2.3). أي أن هناك ثلاثة أصناف من الدلائل يكون الممثل فيها هو الثاني (157).

	أول	ثان
م		2 3 4
و		
أ		

الأصناف الثلاثة للثانوية (158).

(156) نفسه ص 80
(157) نفسه. نفس الصفحة.
(158) نفسه ص 81

أما إذا كان الممثل هو الثالث، فإن موضوعه يمكن أن يكون أولًا أو ثانيا أو ثالثا، ويمكن لمؤوله أن يكون كذلك أولا أو ثانيا أو ثالثا، الشيء الذي يوفر لنا ستة أصناف من الدلائل يكون الممثل فيها هو الثالث : صنفاً يكون موضوعه هو الأول (3.1، 1.2، 1.3). وصنفين موضوعهما هو الثاني (3.1، 2.2، 1.3) و(3.1، 2.2، 2.3) وثلاثة أصناف موضوعها هو الثالث (3.1، 3.2، 1.3) و(3.1، 3.2، 2.3) و(3.1، 3.2، 3.3) أي ستة أصناف يكون الممثل فيها هو الثالث (159).

	أول	ثان	ثالث
م			10 9 8 7 6 5
و			
أ			

الأصناف الستة للثالثية (160).

وإذن، فأصناف الدلائل لا تتجاوز العشرة : وهي :

1 ـ **الدلائل ـ الكيفيات** (الأيقونية الخبرية) : الاحساس ب «الأحمر»

2 ـ **الدلائل المفردة الأيقونية** (الخبرية) : رسم معطى في كتاب الهندسة

3 ـ **الدلائل المفردة الأمارية الخبرية** : صراخ عفوي.

4 ـ **الدلائل المفردة** (الأمارية) **المقولية** : فرْفارة girouette

5 ـ **الدلائل ـ القوانين الأيقونية** (الخبرية) : رسم بغض النظر عن تجسيده على سبورة سوداء أو في كتاب.

6 ـ **الدلائل ـ القوانين الأمارية الخبرية** : ضمير.

7 ـ **الدلائل ـ القوانين الأمارية المقولية** : صراخ في الشارع.

(159) نفسه ص 80

(160) نفسه ص 81

8 ــ الرموز **الخبرية**، أو بالتدقيق، (الدلائل ــ القوانين) **الرمزية الخبرية** : اسم جنس.

9 ــ الرموز **المقولية**، أو بالتدقيق (الدلائل ــ القوانين) **الرمزية المقولية** : قضية معينة.

10 ــ **الحجج**، أو بالتدقيق، (الدلائل ــ القوانين الرمزية) **الحجية** : استدلال قياسي (161).

إن هذه الأصناف العشرة، مثلها مثل ثلاثيات الدليل الثلاثة، هي حصيلة تحليل منطقي وليست حصيلة ملاحظة للأوضاع (162). فالدليل عبارة عن ثلاثية، وهو سيرورة من العلاقات العمودية بين ممثل (م) وموضوع (و) ومؤول (أ). غير أنه من الضروري، بهدف تخصيصه في فردانيته، تثليثه أي تناول كل لحظة من لحظات الممثل والموضوع والمؤول كثلاثيات (يُمَثَّل لها أفقيا)، ومن شأن ذلك أن يمكننا من تحديد المقولة الظاهراتية التي تعود إليها كل لحظة معطاة للدليل (163) :

	1	2	3
م	م 1	م 2	م 3
و	و 1	و 2	و 3
أ	أ 1	أ 2	أ 3

(164)

وإن في الاقرار بهذا الأمر إشارة إلى أنه لا ينبغي الخلط بين صنف فرعي للدليل وبين الدليل التام. إذ لا وجود لدليل إلا إذا ما وجدنا الأبعاد الثلاثة للثلاثية. وتقوم قائمة الأصناف العشرة على تركيبات **ثلاثية** لأن هذه القائمة تمدنا، في كل لحظة، بدليل تام بممثله وموضوعه

(161) Ecrits P: 179—183 et Deledalle. commentaire P.240 — 241

(162) Deledalle. commentaire P. 241

(163) Bruzy et autres op. cit P. 34

(164) نفسه ص 34

ومؤوله. وبعبارة أخرى، فإن الدليل المفرد والأيقونة والرمز والمقول... ليست دلائل، وإنما هي مكونات منطقية للدليل (165). فهذه التركيبات، إذن، ليست ثلاثية فحسب وإنما هي منطقية. وهذا يعني أن هذه التركيبات تأخذ بعين الاعتبار الهرمية الموجودة بين الأصناف الفرعية : فالثالثية تفترض الثانوية، والثانوية تفترض الأولية. ولهذا السبب ليست هناك سوى عشرة أصناف من الدلائل (166). ويتحكم نفس المنطق في الأقواس التي تلحق بالتسميات. وبالفعل فإن الدليل ــ الكيفية لا يمكنه أن يكون غير أيقونة وخبر، وأن كل الرموز هي دلائل ــ قوانين.. الخ (167).

ولكي يعطي دولودال فكرة واضحة عن هذه الأصناف وتأليفاتها، يقوم بتحليل طابع بريدي :

(165) Elucrd. la pragmatique linguistique P. 54 et 58

(166) نفسه. ص 58

(167) نفسه. ص 58

يميز دولودال، بادىء ذي بدء، الصورة المجردة عن عناصر الرسم الأخرى : النص والأرقام والمِيْسم البريدي la marque postale وأسنانية الطابع la dentelure du timbre. إن الصورة، بهذه الصفة وباعتبارها ممثلا، دليل مفرد. وبالفعل، فهي ليست دليلا ــ قانونا لأنها ليست جزءا لا يتجزأ من سنن. ونظرا لأن الدلائل ــ الكيفيات، رغم كونها واقعية، لا يمكنها أن توجد إلا متحققة في موضوع، فإن الصورة الممثِّل لها دليل مفرد يجسد لقاء دلائل ــ كيفيات. وبالنظر الى الموضوع الذي يمثله الممثِّل، فإن الصورة أيقونية إذ تحيل على موضوعات قابلة لأنْ يُتعرَّف عليها ويماثلها كل عنصر من عناصر الصورة : فردة حذاء ومسمار معوَجّ منغرس في قطعة من الخشب. وعليه، فإن الصورة، بالنظر الى موضوعها، أيقونة، إلا أن هذه الصورة، معزولة عن سياقها، ليست قابلة للتأويل إلا على المستوى الأول للمؤول : فهي خبرية. وهي لا تقول أكثر مما تسمح لها بقوله طبيعتها الخبرية : القدم اليسرى لامرأة تنتعل كعبا موضوعا على مسمار معوج منتزع نصفه من قطعة الخشب. إن هذه الصورة تنتمي، إذن، الى الصنف الثاني من الدلائل : إنها دليل مفرد أيقوني خبري.

أما إذا وضعناها في سياقها المادي، فإن الصورة تبدو بوصفها صُوَيْرة vignette طابع بريدي ذي أمارات متقاربة : أسنان، مَيْسَمُ خاتم مؤرِّخ. فالطابع البريدي من ألمانيا الفيدرالية وهو طابع بريدي منتزع من رسالة وضعت في صندوق للبريد بهامبورغ في 26 يونيو زوالا. وقد وضعها مُرْسِل يمكن للقارىء الذي يعرف المرسَل إليه أن يسميه. وعلى هذا المستوى من التأويل، فالصورة ليست مجرد دليل مفرد أيقوني خبري. فنحن نعرف أن الأمر يتعلق بصويرةٍ بريدية vignette postale. والصورة، في هذه الحالة، دليل مفرد أماري مقولي.

وإذا ما وضعنا الصورة في سياقها التأويلي أو الدلالي الذي توفره لنا الخرافة Jederzeit sicherheit والتي قد نؤولها بوصفها دعوة الى الحذر. فإن الصورة تصير، في هذه الحالة، الصورة دليلا ــ قانونا رمزيا حجيا. إنها دليل ــ قانون لأن الطابع البريدي جزء لا يتجزأ من سلسلة الطوابع البريدية التي صدرت في إطار حملة الوقاية من الحوادث : إنه جزء لا يتجزأ من نسق وعنصر من سَنَن. وبذلك فالصورة دليل ــ قانون رمزي.

ولذا، فالأمر لا يتعلق بقدم امرأة توشك أن تطأ مسماراً معيناً، وإنما يتعلق الأمر بالخطر الناجم عن قطع الخشب المستعملة والمرمية في الشارع دون أن نزيل منها المسامير. إن الأيقونة تصبح رمزا، وتصير الصورة دليلا ــ قانونا رمزيا حجيا. فالصورة لا تقول بإزالة قطع الخشب المستعملة المرمية في الشارع، وإنما تقدم الحجة على ذلك، فهي حجة : إذا تركتم قطع الخشب القديمة مرمية في الشارع ــ تلك القطع التي لم تزيلوا منها المسامير التي من الممكن أن تكون قد دُقّت فيها ــ فإنكم قد تتسبَّبُونَ في جرح شخص ما. إنها الحجة المنطقية بامتياز : أي الاستلزام.

إن الخلاصة التي على المشتغلين في الأوراش أو أولئك الذين يزودون الزبناء بِمُؤَنٍ في صناديق من الأخشاب ـــ الوقوف عندها هي أنه يجب ألا تترك قطع الخشب في الشارع وخاصة إذا كانت فيها مسامير. ثم هناك خلاصة أعم يمكن الوقوف عندها وهي أنه يجب الانتباه الى المواضع التي نضع عليها أقدامنا خاصة حينما نمر بالقرب من ورش أو أي مكان توضع فيه الأدوات الثقيلة. (168).

Deledalle, théorie... P. 97 — 100 (168)

الفصل الرابع

الاتجاهات السيميوطيقية

1. تصور سوسير للسيميولوجيا

لأن سوسير لم يتناول السيميولوجيا إلا عرضا في فترة لم يشق فيها البحث اللساني طريقه بعد وبالتالي لم يكن بوسع هذا العلم الجديد ــ السيميولوجيا ــ أن يتبلور بعد كمجال معرفي مخصوص، فقد اقتصر على تقديم تصور عام لاغير، تصور عام لهذا العلم ولموضوعه ولمنهجه.

إن السيميولوجيا تنطلق في تصور سوسير من «نظام جديد للوقائع» (1) ذلك أن اللسان نسق دلائل معبرة عن أفكار، ومن ثمة فهو شبيه بالكتابة وبأبجدية الصم ــ البكم، والطقوس الرمزية وأشكال آداب السلوك والعلامات البحرية... الخ... (2). هذه الوقائع، إذن، يمكنها أن تُنَظَّمَ بشكل جديد تحت خانة واحدة مادامت عبارة عن وقائع دالة. ولأنها كذلك فهي، إذن، أنساق دلائل أي أنساق مُكَوَّنَةٌ من مركبات دوال ومدلولات، هذه المركبات التي عليها أن تؤدي وظيفة التعبير عن أفكار متميزة، أي وظيفة رمزية داخل المجتمعات المختلفة.

وما دامت هذه الوقائع المختلفة أي هذه الأنساق المتنوعة تؤدي نفس الوظيفة، فإنه من الممكن تصور علم عام من شأنه أن يدرس كل الدلائل المختلفة. يقول سوسير : «يمكننا، إذن، أن نتصور علما يدرس حياة الدلائل داخل الحياة الاجتماعية؛ علما سيكون فرعا من علم النفس الاجتماعي، وبالتالي فرعا من علم النفس العام؛ ونطلق على هذا العلم السيميولوجيا (من «Séme‌îon» أي دليل). وسيكون على هذا العلم أن يعرفنا على وظيفة هذه الدلائل وعلى القوانين التي تتحكم فيها. ولأن هذا العلم لم يوجد بعد، فلا يمكن التكهن بمستقبله؛ إلا أن له الحق في الوجود، وموقعه محدد سلفا» (3).

(1) Cours de linguistique générale P. 33

(2) نفسه. نفس الصفحة

(3) نفسه. نفس الصفحة

إن هذه الوقائع ـــ الدلائل وغيرها قد سنَّتْها المؤسسات المجتمعية لتأدية مقاصد داخل المجتمعات المعينة ولتقوم بوظيفة الترميز وضبطها في هذه المجتمعات. وهي لاتقوم بهذه الوظيفة الترميزية إلا وفق قواعد معينة مضبوطة. وإذن، فهي، تشكل فيما بينها **مجالا معرفيا**، ولذلك وجب **تصور** علم يقوم بدراستها وكشف آليات اشتغالها. ويبدو أنه من المشروع تصور وجود مثل هذا العلم بالنظر الى هذا السبب، من جهة، وبالنظر من جهة ثانية، إلى أن مشروعية مثل هذا التصور تستند الى موقعه ضمن العلوم وخاصة علم النفس العام ذلك أن هذه الوقائع ـــ الدلائل ذات طبيعة اجتماعية ونفسية كما أوضح ذلك سوسير في حديثه عن مفهوم الدليل.

وبما أن هذه الوقائع تشتمل داخلها على عدة أصناف من الدلائل، فإن الدلائل اللسانية ليست سوى صنف خاص من مجموع هذه الوقائع. ولذلك اعتبر سوسير أن «اللسانيات ليست سوى فرع من هذا العلم **العام**» (4). ويعني ذلك أننا أمام نوعين من الدلائل : **دلائل لسانية و دلائل غير لسانية**. والدلائل اللسانية تشكل فرعا لاغير من عموم الدلائل. وبما أن السيميولوجيا ستعتني بعموم الدلائل فهي **علم عام**. أما اللسانيات التي لا تُعْنَى إلا بالدلائل اللسانية فهي لا تعدو أن تكون **علما خاصا** بنوع محدد من الدلائل. وبذلك تكون اللسانيات **علما تابعا** للسيميولوجيا، وتكون السيميولوجيا **علما شموليا**.

إلا أن افتراض وجود السيميولوجيا تواجهه عقبة معرفية تتجلى في كونها ليست بعد علماً مستقلا وليست ذات موضوع خاص متميز. ذلك أن القضايا التي من المفترض أن تندرج في السيميولوجيا ما تزال موزعة على عدة علوم. ومن جهة ثانية، فإن السيميولوجيا تشتمل على ظواهر دالة مختلفة التكون ومتفاوتة الوظيفة الرمزية والفعالية التعبيرية ومتعددة الأشكال.

ويعود هذا الغموض في وضع السيميولوجيا وفي طبيعة موضوعها، في رأي سوسير، الى افتقادنا لكل ما يمكنه أن يعرفنا بطبيعة المسألة السيميولوجية، أي اللسان، لأن طرح هذه المسألة طرحا مقبولا يستوجب دراسة اللسان في ذاته (5). ويعني ذلك، في رأي سوسير، أن لِلّسَانِ أهمية كبرى في تصنيف الظواهر الدالة وكشف طبيعتها. وبما أن اللسان لم يدرس قبل سوسير في ذاته، فإنه لم يكن بمقدور السيميولوجيا أن تتشكل كعلم. أما وأنه قد وضعت، مع سوسير، أسس نظرية دراسة اللسان في ذاته، فإنه من المفروض الآن أن يوضع مثل هذا العلم العام. وبذلك يصح ربط تأخر ظهور السيميولوجيا بتأخر تشكل اللسانيات كعلم مستقل.

(4) نفسه. نفس الصفحة
(5) نفسه. ص 34

إن اللسان هو الذي مكننا من الوقوف على الخاصية الجوهرية للدليل والتي تتلخص في كونه ينفلت دائما، وبدرجة ما، من الارادة الفردية والارادة الجماعية، ذلك أن الدليل يعتمد على عادة اجتماعية أو على تعاقد أو على قاعدة تثبته وترسخه (6). إن هذه الخاصية التي تنكشف بوضوح في اللسان توجد في ظواهر دالة أخرى. واكتشاف هذه الخاصية في مثل هذه الظواهر ما كان ليتأتى لولا الانطلاق من اللسان والاستعانة به.

ونظراً لأن ذلك لم يتأت في السابق، بحكم إغفال دراسة اللسان في ذاته، فإنه لم يكن وارداً وضع السيميولوجيا كعلم. أما الآن، وبعد وقوفنا على الخصائص المشتركة بين الدلائل اللسانية والدلائل غير اللسانية ـــ ولأن الدلائل غير اللسانية لا يمكنها أن تندرج ضمن موضوع اللسانيات ـــ فإننا نجد أنفسنا في مسيس الحاجة الى جمع تلك الوقائع الدالة والقيام بدراستها وفق قوانين السيميولوجيا.

وإذا كانت مشروعية السيميولوجيا كعلم مستقل قد اتضحت معالمها الآن، فإنه ما يزال عليها أن تحل إشكالا كبيرا يتصل بتحديد موضوعها. إذ الدلائل السيميولوجية متفاوتة الاعتباطية بل إنها تنقسم الى دلائل اعتباطية ودلائل طبيعية مثل الحركات الميمية (7).

وإذا كان على السيميولوجيا أن تدرس هذين النوعين من الدلائل، فإن موضوعها الرئيسي، عند سوسير، لن يكون سوى «مجموع الأنساق القائمة على اعتباطية الدليل»، لأن «الدلائل التامة الاعتباطية تحقق نموذج الطريقة السيميولوجية أفضل من الدلائل الأخرى» وبذلك «يمكن للسانيات أن تصبح المقاس العام لكل نشاط سيميولوجي رغم أن اللسان ليس سوى نسق خاص» (8).

إن للسيميولوجيا، إذن، موضوعين : أولهما رئيسي وينصب على دراسة الدلائل الاعتباطية، وثانيهما ثانوي وينكب على دراسة الدلائل الطبيعية. إلا أن هذا الشق الثاني غير محسوم بعد في وضعه المعرفي، ويبقى على السيميولوجيا مستقبلا أن تحسم في مسألة اندراجه ضمن موضوعها أو عدم اندراجه.

ولأن الاعتباطية لم تعد مبدأ لسانيا فحسب وإنما صارت أيضا مبدأ سيميولوجيا مُنَظِّماً للأنساق السيميولوجية، فإن اللسان باعتباره النسق القائم على الاعتباطية في جوهره هو نموذج موضوع السيميولوجيا.

وبذلك صارت السيميولوجيا هي العلم الذي يقوم بدراسة الأنساق القائمة على اعتباطية الدليل.

(6) نفسه. ص 100 ـــ 101

(7) نفسه ص 100 ـــ 101 وص 110

(8) نفسه. نفس الصفحتين.

وعلاوة على ذلك، فإن السيميولوجيا، لكي تنهض كعلم مستقل ومحدد الموضوع، بات عليها أن تستنسخ التجربة اللسانية. ومن ثمة بات عليها أن تستعير من اللسانيات مبادئها ومفاهيمها. ويعني ذلك أن موضوع السيميولوجيا ينحصر في «اللسان» السيميولوجي باعتبار اللسان نظاما من القواعد المختزنة والقوانين والأشكال النحوية المنطبعة في الذهن، أي باعتباره نسقا تجريديا مثاليا. وبذلك يكون موضوع السيميولوجيا هو الأنساق الدالة غير المنجزة باعتبار الانجاز (الكلام) السيميولوجي متفرداً وخاصّاً ومتغيرا وخاضعاً لارادة الفرد وذكائه. بينما تتوخى السيميولوجيا كل ماهو ثابت وعام وكلي ويعلو على إرادة الفرد والجماعة معا، وما ذلك إلا لأن أي علم يهدف الى تآلف عناصر موضوعه وانسجامها.

بمثل هذه النظرة وما يترتب عنها صارت السيميولوجيا تابعة للسانيات بل وفرعاً منها. والمنهج الذي رصده سوسير، بخصوص التحليل اللساني، من المفروض، وفق هذا الطرح، أن ينسحب على الأنساق السيميولوجية مثل التزامنية (السانكرونية) والقيمة والتعارض والمحورين الترابطي والمركبي.

وعلى غرار انقسام اللسانيات الى لسانيات اللسان ولسانيات الكلام وإلى لسانيات تزامنية (سانكرونية) ولسانيات دياكرونية، يبدو من هذا المنظور السابق أن السميولوجيا يمكن أن تنقسم بدورها الى سيميولوجيا اللسان وسيميولوجيا الكلام وإلى سيميولوجيا تزامنية وسيميولوجيا دياكرونية. إلا أن سيميولوجيا اللسان هي الجوهر والأصل والسيميولوجيا السانكرونية هي السيميولوجيا الدالة بحيث تنظر الى العناصر السيميولوجية في تلازمها وتضايفها.

2. سيميولوجيا التواصل

نجد، من بين تصورات السيميولوجيا التي تستلهم سوسير، التصور الذي يمثله كل من بريطو Prieto ومونان Mounin وبويسنس Buyssens. ويحكم هذا التصورَ مبدأً لايرى في الدليل غير كونه أداة تواصلية أو أداة قصد تواصلي.

إن الوظيفة الخاصة بالبنيات السيميوطيقية التي نسميها بالألسنة هي التواصل. ولا تختص هذه الوظيفة بالألسنة وإنما توجد أيضا في البنيات السيميوطيقية التي تشكلها الأنواع السننية غير اللسانية (9).

وبذلك يمكن للسيميولوجيا، حسب بويسنس، أن تُعَرَّف باعتبارها دراسة طرق التواصل، أي دراسة الوسائل المستخدمة للتأثير على الغير والمعترف بها بتلك الصفة من قبل الشخص الذي نتوخى التأثير عليه (10). بل إن السيميولوجيا، كما يقول بريطو، ينبغي عليها

(9) Prieto. pertinence et pratique P. 10 — 11

(10) la communication et l'articulation linguistique P. 12

أن تهتم فيما يرى بويسنس بالوقائع القابلة للادراك والمرتبطة بحالات للوعي والمنتجة بقصد التعريف بحالات الوعي هاته (11).

وبعبارة أخرى، فإن التواصل هو الذي يشكل موضوع السيميولوجيا. والتواصل المقصود هو من جنس التواصل اللساني لأن هذا التواصل هو التواصل الحق.

فكيف يتحدد التواصل ؟

يرى بويسنس أن جهة نظر السيميولوجي تفرض علينا اللجوء الى الوظيفة الأولية للغة : أي التأثير على الغير.. إلا أنه من الممكن التأثير على الغير دون إرادة ذلك... ويتعلق الأمر، في هذه الحالة، بالأمارات. والسيميولوجي لايدرس هذه الحالات، ذلك أنه يقتصر على الوسائل التعاقدية (12). ويقول بريبطو إن استعمال العلامات هو الذي يحدد التواصل : إذ يمكن الحديث عن فعل تواصلي أو فعل مَعْنَمي (سِيمِي) في كل لحظة يحاول فيها مرسِلٌ، وهو في طور إنتاج علامة ما، إمداد مستقبِل بإشارة معيَّنة indication (13).

إنه يستحيل الحديث عن تواصل أو فعل معنمي (= سيمي) لأن بعض الوقائع (= الامارات) حينا تدل، فهي تؤثر على الغير في استقلال عن إرادة المتكلم، ذلك أن الواقعة التي تمدنا بإشارة تشكل أمارة حينا يمكننا أن نستنتج، انطلاقا من ملاحظة انتمائها الى صنف محدد، انتماء واقعة أخرى الى صنف آخر محدد (14).

وبخصوص الأمارات، يمكننا أن نميز ثلاث أمارات :

1 — الأمارات **العفوية**، وهي التي تتكون من الوقائع التي تمدنا بإشارات دون أن تكون هذه الوقائع قد أنتجت لهذا الغرض سواء تعلق الأمر بالوقائع الطبيعية أم بالوقائع المصنوعة من قبل الانسان بشكل لا إرادي أو وقائع مصنوعة ذات قصد مغاير لقصد الاشارة. مثال : لون السماء الذي يشير، بالنسبة الى صياد السمك، الى حالة البحر يوم غد.

2 — **الأمارات العفوية المغلوطة**، ومثالها اللكنة التي ينتحلها متكلم ما راغب في إيهامنا بأنه أجنبي.

3 — **الأمارات القصدية** : ويتعلق الأمر بالوقائع التي توفر إشارات أنتجت قصداً لتوفيرها وهي إشارات لا تَبْلُغُ هذا الهدف إلا شريطة الاعتراف بها بوصفها أنتجت لتَبْلُغَ ذلك الهدف. مثال : علامات المرور. وتسمى الأمارة القصدية علامة (15).

(11) in le langage. Pléade P. 94

(12) La communication et l'articulation.... P.12

(13) المرجع السابق ذكره. ص 18 — 19

(14) نفسه. ص 15

(15) نفسه. ص 15 — 17

هكذا يبدو أن هناك اشتراطا للقصدية التواصلية الواعية حتى صار الدليل أداة القصدية التواصلية. وإذا أخذنا بعين الأعتبار كل ما سبق، فإن موضوع السيميولوجيا هو الدلائل القائمة على القصدية التواصلية. ولهذا السبب سميت هذه السيميولوجيا بسيميولوجيا التواصل.

ويرى برييطو أنه من الممكن اعتبار سيميولوجيا التواصل فرعاً من سيميولوجيا تدرس البنيات السيميوطيقية مهما كانت وظيفتها. إلا أن سيميولوجيا من هذا النوع ستلتبس بعلوم الانسان منظورا إليها في مجموعها. إذ يبدو أن موضوع علوم الانسان جميعا هو البنياتُ السيميوطيقية التي لاتتميز فيما بينها إلا بالوظيفة التي تميز، على التوالي، هذه البنيات (16).

3. سيميولوجيا الدّلالة

يُعْزَى هذا الاتجاه الى رولان بارط الذي يرى أن جزءا كاملًا من البحث السيميولوجي المعاصر مرده، بدون انقطاع، إلى مسألة الدلالة : فعلم النفس والبنيوية وبعض المحاولات الجديدة للنقد الأدبي.. كل ذلك لا يدرس، أبدا، الواقعة إلا باعتبارها دالّة. وافتراضُ الدلالة يعني اللجوء الى السيميولوجيا (17).

وإذن، فلا مهرب للأبحاث المعاصرة في العديد من الحقول المعرفية من الخوض مباشرة في مسألة الدلالة، وبالتالي، فإن المقاربة السيميولوجية مقاربة ضرورية لأن كل الوقائع دالة. بل إننا حينما ننتقل الى مجموعات ذات عمق سوسيولوجي حقيقي، فإننا نواجه، مجددا، اللغة. ومن الأكيد أن الأشياء والصور والسلوكات يمكنها أن تدل — وهي تقوم بذلك بوفرة — إلا أنها لا تقوم بذلك، أبدا، بصورة مستقلة. إن كل نسق سيميولوجي يمتزج باللغة (18).

إن كل المجالات المعرفية ذات العمق السوسيولوجي الحقيقي تفرض علينا مواجهة اللغة ذلك أن «الأشياء» تحمل دلالات. غير أنه ما كان لها أن تكون أنساقا سيميولوجية أو أنساقا دالة لولا تدخل اللغة ولولا امتزاجها باللغة. فهي، إذن، تكتسب صفة النسق السيميولوجي من اللغة. وهذا ما دفع ببارط إلى أن يرى أنه من الصعب جدا تصور إمكان وجود **مدلولات** نسق صور أو أشياء خارج اللغة؛ بحيث إن إدراك ما تدل عليه مادة ما يعني اللجوء، قدريا، الى تقطيع اللغة؛ فلا وجود لمعنى إلا لما هو مُسَمّى، وعالم المدلولات ليس سوى عالم اللغة (19).

(16) نفسه ص 11
(17) Mythologies P. 195 — 196
(18) Eléments de Sémiologie. gonthier P. 80
(19) نفسه. نفس الصفحة

واضح أن مدلولات الأنساق السيميولوجية لا تنشأ خارج اللغة بل داخلها، وبذلك فإن أي شيء لايدل إلا بالاستعانة بما توفره لنا اللغة من تصور للعالم. ولا مجال لاسناد الدلالة الى هذه الأشياء لو لم نلجأ الى اللغة. وبذلك، فوجود المعنى يرتبط بالتسمية. وبالتالي، فإن اللغة هي التي تحقق لنا عالم المدلولات.

إن الأمر يتعلق، كما يرى أمبرطو إيكو وإيزابيلا بيتسيني، يكمن في أن بارط يوضح لنا كيف أن وقائع التواصل الانساني لا تُسْتَنْفد من خلال الكلام، ذلك أن إنسان الحياة اليومية خاضع، بالفعل، لركام مستمر من الرسائل التي لا تجسد، دائما، قصدية مباشرة، وإنما هي رسائل تنزع، في الغالب، الى أن تَمْثُلَ في مظهر طبيعية «الواقع» البريئة بسبب من غائيتها الاديولوجية (20).

ويعني ذلك أن إنتاج المعنى وتوفير التواصل يمكنه أن يتم بواسطة أنساق لفظية وأنساق غير لفظية. وهذا ما دفع بارط الي أن يسند وظيفة التواصل الى الأنساق اللسانية وإلى الأشياء. إلا أن السيميولوجيا مدعوة، رغم أنها تشتغل في البداية على مواد غير لسانية، إلى أن تلتقي باللغة سواء استعجلت أم لم تستعجل. وهي تلتقي باللغة لا باعتبارها نموذجا فحسب، وإنما باعتبارها مكوِّنا كذلك (21).

لأن المعنى من إنتاج اللغة، فلا يمكن للسيميولوجيا إلا أن تلجأ إلى اللغة للوقوف على دلالة الأشياء. وبذلك، فاللغة تعتبر نموذجاً للسيميولوجيا إذ هي التي تمدنا بالمعاني والمدلولات. أي أن نموذج المعاني في السيميولوجيا نموذج لساني. وبالاضافة الى ذلك، فإن اللغة مكوِّن للسيميولوجيا إذ يستحيل بناؤها ما لم تكن اللغة عنصرا بنائيا فيها.

إن في الطرح البارطي انتقادا لأنصار سيميولوجيا التواصل الذين يعتبرون ما أتى به بارط عبارة عن أمارات وتجلٍ بسيط. إلا أنه من الخطإ الاعتقاد بأن علم الدلائل قد نشأ، أولًا، باعتباره علما للغة اللفظية، ثم توسعت مقولات اللسانيات بعد ذلك، لتستوعب مظاهر أخرى. بينما يقضي المشروع الأصلي للسيميولوجيا بالاعتراف بوجود «دليلية» signicité أولية تتجلى في العَرَض والأمارة، هذه الدليلية التي نجدها أيضا في ما نسميه بالدلائل اللفظية (22). وفي الواقع، فإن علم الدلائل، منذ هيبوقراط Hyppocrate إلى الرواقيين، لا يخص اللغة اللفظية، وإنما يخص، قبل ذلك، العالم الطبيعي وبالتالي عالم الأشياء والصور والشارات. ولم يطبق مصطلح «دليل» على الكلمات كذلك إلا فيما بعد (23).

(20) المرجع السابق ذكره ص 20 — 21

(21) Eléments de sémiologie. gonthier P. 81

(22) Eco et Pezzini, op.cit P.22

(23) نفسه. نفس الصفحة

وبما أن بارط يربط إنتاج المعني باللغة، فإن هذه الأنساق، مثل نسق التقليعة La mode، مجموعة فرعية تابعة لنسق بدئي عميق هو نسق اللغة اللفظية، ذلك أن «أنساق التواصل الأخرى الخطية والاشارية gestuels والمرئية الخ...) متفرعة عن اللغة المنطوقة وتفترض وجود اللغة» (24).

إذن، فإنه على سيميولوجيا النسق غير اللساني أن تستعير توسط اللسان، وعليه، فإنه لا يمكنها أن توجد إلا بواسطة/وفي سيميولوجيا اللسان... إن اللسان هو مؤوّل كل الأنساق الأخرى لسانية كان أم غير لسانية (25).

ولهذا السبب، فإن المعرفة السيميولوجية لا يمكن أن تكون راهنا غير نسخة من المعرفة اللسانية (26). وبذلك قلب بارط المعادلة السوسيرية قائلا : «إن اللسانيات ليست فرعاً، ولو كان مميزا، من علم الدلائل، بل السيميولوجيا هي التي تشكل فرعاً من اللسانيات» (27).

4. سيميوطيقا بورس

تقوم سيميوطيقا بورس على المنطق والظاهراتية Phénoménologie والرياضيات. لذا يبدو ضروريا تقديم هذه المفاهيم والتعريف بها وإيجاد موقع لها في نسيج السيميوطيقا البورسية.

فالمنطق، بالنسبة الى بورس، فرع من علم التشكيل العام للدلائل أي فيزيولوجيا الدلائل أو السيميوطيقا (28). وتتحدد المعرفة، منطقيا، بمعارف أخرى، ولا يمكنها أن تكون غير رمزية وحدسية أو مباشرة. ومن هنا يمكن تصور الفكر باعتباره إجرائيةَ ترجمة تتم بواسطة الدلائل (29). وبذلك، فالمنطق هو العلم بالشروط التي تسمح للرموز، في عمومها، بأن تحيل على الأشياء، وعليه فهو فرع من **الرمزية** Symbolistique : هذا العلم الذي يدرس الدلائل، عامة، بوصفها دلائل. والرمزية، بدورها، فرع من **السيميوطيقا** أو **العلم العام للتمثيل** (30).

إن المنطق، بمعناه الدقيق، هو علم الشروط الضرورية الموصِّلة الى **الصدق**. أما بمعناه العام، فهو علم القوانين الضرورية للفكر، أو بتعبير أفضل، هو علم الفكر الذي تجسده دلائل. إنه السيميوطيقا العامة (31). ويهتم المنطق بالظواهر التي لها غايات تمثيل شيء ما،

(24) Benveniste. Problèmes de linguistique générale. I. P. 28

(25) Benveniste. Prblèmes de linguistique générale. II. P. 60

(26) Barthes . Eléments de Sémiologie in communications N°4 P,. 92

(27) Eléments de Sémiologie. gonthier P. 81

(28) Magalhâes. un, deux, trois catégories fondamentales P. 14

(29) نفسه ص 18

(30) نفسه. نفس الصفحة

(31) نفسه. ص 38

فيكون المنطق بذلك، علم الثلاثية في عمومها (علم التمثيلات في علاقتها مع غائية معينة) (32). إنه فلسفة التمثيل.

ومنطق بورس هو منطق العلاقات. ولا يسمح المنطق الشكلي على وجه التقريب، كما تصوره هذا السيميوطيقي الأمريكي، إلا بدراسة البنيات المحمولية من نوع «الموضوع محمول» «O est p» : ويحتوي هذا الشكل، في الجوهر، على **موضوع** يكمن دوره في تعيين الشيء أو الأشياء المتحدث عنها، ويحتوي على **محمول** يعبر عن خاصية الشيء أو الأشياء، ويحتوي على الفعل الذي ليس له أي دور سوى ربط الموضوع بالمحمول، وهو يعتبر كرابطة Copule. إلا أنه من المستحيل إعادة الاستدلالات الرياضية والعلمية الى هذا الشكل (33).

يتضح، إذن، أن المنطق، بمعناه العام، هو العلم الذي يدرس الفكر الذي تجسده دلائل أي علم التمثيل الرمزي للأشياء باعتباره ثلاثي الأبعاد. ولعله يتضح، كما لاحظ ذلك جاك دريدا Jacques Derrida أن السيميوطيقا غير خاضعة للمنطق (34) لأن المنطق، عند بورس، يرادف السيميوطيقا. يقول بورس : «إن المنطق، بمعناه العام،... ليس سوى تسمية أخرى للسيميوطيقا، إنه النظرية شبه الضرورية أو الشكلية للدلائل. وحينما أصف هذه النظرية باعتبارها «شبه ضرورية» أو شكلية، فإني أود أن أقول إننا نلاحظ خاصيات الدلائل التي نعرفها وأننا ننساق، انطلاقا من هذه الملاحظة، بواسطة سيرورة لا أتردد في تسميتها بالتجريد، إلى أقوال خادعة للغاية، وبالتالي، فهي بأحد المعاني أقوال غير ضرورية إطلاقاً، وتتعلق بما ينبغي أن تكون عليه خاصيات كل الدلائل المستعملة من قبل عقل «علمي»، أي من قبل عقل قادر على التعلم بواسطة الاختبار» (35).

إن المنطق يُعْنَى بدراسة الصلاحية، وعليه أن يتأكد من الصدق ما أمكنه ذلك. إنه يفحص الدلائل ويؤولها اعتمادا على الفرضية والاستنباط والاستقراء. ويتعلق الأمر «بكشف البنية الشكلية المُتَضَمَّنَة في كل تمثيل بواسطة كونها تتحقق بالدلائل لا غير» (36). ويعني ذلك أيضا أن سيميوطيقا بورس تتأسس على فرضية مسماة ب «البروتوكول الرياضي» والتي يكون الدليل وِفْقَهَا ثلاثيا. ولقد سبق لبورس أن برهن على الطابع الضروري للثلاثية ذلك أنه لايمكننا أن نفكر في العدد «واحد» دون أن نتصور، في نفس الآن حدَّه Sa limite (ولنُسَمِّه «اثنَيْن»). لكن تصور «واحد» و«اثنين» بوصفهما كيانين منعزلين (الوحدة والثنائية) يستلزم «ثالثا» من طبيعة أخرى : أي طرفا وسيطا يغيرهما حال التفكير فيهما

(32) نفسه ص 58

(33) نفسه ص 29 — 30

(34) De la grammatologie P. 70 — 71

(35) Ecrits.... P.120

(36) Bruzy et autres op.cit P. 30

بوصفهما كيانين مختلفين. إن ثلاثية ما لا يمكنها أن تحلّل الى ثنائية. بل إن كل علاقة بين أطراف تتجاوز «الثلاثة» يمكن إرجاعها الى تركيبات ثلاثية. فالثلاثية، إذن، ضرورية وكافية في آن واحد : ضرورية منطقيا، وكافية تداولياً ــ ضرورية لبناء علاقات لا متناهية، غير أنها كافية بمعنى أنها تسد حاجيات الاقتصاد بواسطة الاختزال الممكن لأي عدد يتجاوز «ثلاثة» إلى تأليفات من «ثلاثة» (37). والرياضيات هي التي توفر أساس الثلاثية الظاهراتية.

إن بورس يقدم السيميوطيقا باعتبارها العلم الذي يُمَنْطِق الدلائل، فكانت السيميوطيقا، بذلك، العلم العام للدلائل في علاقتها مع الصدق. والظاهراتية، إذن، هي منطق المُشَاكِل للواقع vraisemblable، ويسمح المُشَاكِل للواقع بإصدار حكم في الحالات التي لا نملك فيها يقينا تاما وإنما نملك تَبَدِّيات apparences لا غير (38).

إن ما سماه بورس بالملاحظة التجريدية كفيل بأن يوضح لنا علاقة السيميوطيقا بالمنطق. فلو افترضنا وجود إنسان يرغب في شيء ما يعجز عن اقتنائه فيتساءل : هل أنا راغب في هذا الشيء الى هذا الحد، الى حد اقتنائه لو توفرت لدي الامكانات ؟ ولكي يجيب عن هذا السؤال، يعمد الى تفحص ذاته ويخلق ما يسميه بورس بالملاحظة التجريدية. فهو يخلق، بواسطة خياله، نوعا من الرسم ــ الهيكل أو يخلق خطاطة ــ نسخة عن نفسه، ثم يأخذ بعين الاعتبار التغيرات التي يتطلب هذا الشيء المحتمل إدماجها في هذه اللوحة ويتفحصها، أي أنه **يلاحظ** ما تخيله لكي يرى هل ما تزال عنده تلك الرغبة الشديدة في اقتناء ذلك الشيء أم لا ؟ (39). ثم يعقب بورس على ذلك مؤكدا أنه يمكننا، بفضل هذه السيرورة التي تماثل، في العمق، بدرجة كبرى، الاستدلال الرياضي، أن نتوصل الى خلاصات تتعلق بما **سيكون صادقا** من الدلائل في كل الحالات، شريطة أن يكون العقل الذي يستعملها عقلا علميا (40).

إن السيميوطيقا، إذن، هي ذلك العلم الذي يميز، داخل الدلائل، الدلائلَ الصادقةَ عن الدلائل الكاذبة، أو بعبارة أخرى، السيميوطيقا هي ذلك العلم الذي يفحص الدلائل فيكشف عن الوظيفتين اللتين قد تقوم بهما : وظيفة نقل الدلالة الصادقة ووظيفة نقل الدلالة الكاذبة.

وبناء على ذلك، فالسيميوطيقا تستهدف الكشف **عما ينبغي أن يكون** ولا تقتصر، فقط، على ماهو كائن في العالم. إنها علم الظواهر الموجودة والظواهر الضرورية، وعلم الفكر النقدي الذي يفتح مجالات أرحب أمام المحتمل والممكن من العوالم.

(37) نفسه ص 32

(38) Nef. Note sur une argumentation de Peirce (à propas de la valence verbale) in langages N° 58 P.93

(39) Ecrits.... P. 120 — 121

(40) نفسه ص 121

إن اعتبار السيميوطيقا تسمية أخرى للمنطق يمكن النظر إليه من زاوية ثانية. ويتعلق الأمر، كما لاحظ ذلك دولودال، بالموقع الذي تحتله نظرية الدلائل داخل «العلوم» الأخرى؛ فحينما نقول إن نظرية المقولات تفسر نظرية الدلائل عند بورس، فإن الأمر يتعلق بشيء آخر : إن الأمر يتعلق بالنسق أو بالسياق التفسيري للاحالة (41). فعلى أي علم تحيل السيميوطيقا ؟ إن التحليل «المنطقي» للدلائل هو التحليل الوحيد الذي يصنف المشاكل إلى فئات.

أما بخصوص الرياضيات، فموضوعها، عند بورس، يكمن في صياغة الفرضيات واستنباط النتائج منها. إنها تستدعي الملاحظة بحيث تضع بناءات في الخيال وفق قواعد مجردة وتلاحظ هذه الأشياء الخيالية وتجد علاقات بين أجزائها (42). وتكتفي الرياضيات بأن تفصح عما سيكون صادقا إذا كانت بعض الفرضيات صادقة (43).

أما الظاهراتية فهي الدراسة التي تصف خاصيات الظواهر في مقولاتها الثلاث. ويعني ذلك أن سيميوطيقا بورس تتأسس على تحليل مقولات الوجود بوصفه كيفية وموجوداً وضرورة إذ تهتم بتمظهر الدليل. ولهذا السبب، فإن لسيميوطيقا بورس طبيعة ضرورية ظاهراتية. وعلى هذا الأساس، تكون السيميوطيقا هي العلم الذي يدرس الدلائل اللسانية وغير اللسانية. ومن الواضح أن مفهوم الدليل ما كان له أن يكون كذلك لو لم يُوَسَّع ليشمل مختلف الظواهر كيفما كانت طبيعتها. وقد أكد بورس أنه لم يكن بوسعه أن يدرس أي شيء، مثل الرياضيات والأخلاق والميتافيزيقا والجاذبية وعلم الأصوات والاقتصاد وتاريخ العلوم... الخ، إلا بوصفه دراسة سيميوطيقية. (44).

والسيميوطيقا، عند بورس، هي أيضا «نظرية الطبيعة الجوهرية للسيميوزيسات Sémiosis الممكنة وتنوعاتها الأساسية» (45). إنها نظرية تعاون الذوات الثلاثة المكونة للدليل أو نظرية التأثير الثلاثي العلاقة.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار المؤول الدينامي، فإن السيميوزيس أو فعل الدليل سيتخذ سيرورة لا نهاية لها، الشيء الذي يجعل من السيميوطيقا علما صارما للظواهر الثقافية في تحريره إياها من أية ميتافيزيقا للمرجع (46). ولعله يبدو واضحا أن فعل الدليل اللامتناهي واللامحدود هو، وحده، الذي يضمن تأسيس نسق سيميولوجي قادر على أن يوضح نفسه بنفسه

(41) Deledalle, commentaire P. 212

(42) Magalhâes, Un, Deux, Troix catégories fondamentales P. 43 — 44

(43) نفسه ص 44

(44) Deledalle, commentaire P. 212

(45) Ecrits... P. 135

(46) Carontini. L'action du signe P. 27

بواسطة وسائله الخاصة لاغير (47). إن المعنى لا يوجد خارج اللغة، وإنما هو في فعل التواصل ذاته وفعل الكلام وفعل الانتاج (48).

بل إن فعل الدليل يوجد، دائما، في إطار سيرورتين متناقضتين ومتكاملتين في النهاية : فمن جهة، هناك سيرورة تتأسس في القوانين الداخلية للغة، تلك القوانين التي ليس للغة معايير أخرى غير ممارستها الخاصة؛ ومن جهة ثانية، هناك سيرورة تتأسس في شروط تاريخية ملموسة تتأطر داخلها الممارسة الدالة وتبرز على مستوى اللغة قيود الممارسة الدالة وتناقضاتها ومعاييرها الخاصة (49).

وبذلك تكون السيميوطيقا عند بورس، هي ذلك العلم الذي بإمكانه أن يدرس ويستوعب مختلف العلوم بما أن لبعض الدلائل مؤولات نهائية ذات طبيعة معرفية وعقلية «وتكمن وظيفتها في إنتاج مراقبة مقصودة ونقدية للعادات أو الاعتقادات. وهنا يوجد المجال الخاص بالمعرفة الفلسفية أو العلمية التي تبلور، في أوقات محددة من تاريخها، سلسلة من المعايير التي تسمح بتحديد ماهو صادق، سواء كان هذا الصدق مفكرا فيه باعتباره ملاءمة (= كفاية) أو باعتباره انسجاما داخليا أو باعتباره مُشَاكِلًا للواقع» (50).

ولهذا السبب، لم يكن بإمكان بورس أن يدرس مختلف العلوم إلا باعتبارها ظواهر دالة ما دامت أنشطة رمزية ينجزها الانسان. ويترتب عن هذا التصور أن تكون سيميوطيقا بورس سيميوطيقا مفتوحة، «فهي تجد مزيتها ووحدتها (في مختلف العلوم)» (51).

وسيميوطيقا بورس، فيما يرى دولودال، لا يمكن فصلها، بوصفها نظرية، عن فلسفته التي تتسم بكونها استمرارية وواقعية وتداولية. فهي استمرارية في معارضتها للنزعة التوحيدية monisme والنزعة الثنائية dualisme ذلك أن الفكر ليس ملكة معرفية موجودة خارج الموضوع الذي ينبغي معرفته (شيئا أو طبيعة) وإنما هو سيرورة في الأشياء في استمرارية خلاقة معها (52). وهي واقعية في معارضتها للاسمية nominalisme إذ ينتسب الواقع الى ماهو حاضر بالنسبة إلينا في المعرفة الحق كيفما كانت (53). وهي تداولية لأن منهجها يفضي الى وقائع عملية (54).

(47) Eco. la structure absente P. 66 — 67

(48) Carontini P. 27

(49) نفسه ص 29

(50) نفسه. نفس الصفحة

(51) Deledalle. Théorie.... P. 192

(52) نفسه ص 14

(53) نفسه ص 15

(54) نفسه ص 16

ويمكن النظر الى سيميوطيقا بورس باعتبارها سيميوطيقا التمثيل والتواصل والدلالة في آن واحد. وهكذا، فإن للدليل، باعتباره دليلا، وجوده الخاص : فالسفير مثلا، رغم أنه يمثل بلاده، هو سفير بالنسبة الى نفسه بتاريخه الخاص الذي يميزه عمن كان يشغل نفس المهمة قبله (55). وعليه، فهذا البعد بعد تمثيلي. أما البعد الثاني فهو البعد الدلالي : فالسفير يقوم بدور معين في الوقت الذي يقدم فيه أوراق اعتماده. ويحيل هذا «الدور» على الدلالة التي هي قاعدة تأويلية في نسق الدلائل المؤوِّلة. فتقديم أوراق الاعتماد لعبة لها قواعدها، ودلالة الاشارات gestes دلالة عامة. إن الدلالة عبارة عن قاعدة للفعل : فهي تحدد معنى كل فعل من نفس النمط داخل نسق معطى من الدلائل (56). والبعد الثالث، بعدٌ تواصلي ذلك أن الكلمات «في الوقت الذي» تشير الى أن اللعبة قيد الانجاز : فالتواصل الذي يشكله تقديم أوراق الاعتماد تواصلٌ قيد الانتاج. وعليه، فالتواصل فعل فردي ملموس، وحدث تاريخي وحدث في التاريخ (57). ويلاحظ دولودال أن هذه الأبعاد الثلاثة يمكن النظر إليها باعتبارها، على التوالي، أولية (تمثيل) وثانوية (تواصل) وثالثية (دلالة) (58). ويمكن القول، هنا، إن سيميوطيقا بورس سيميولوجيا تواصلية إلا أنها تتناول الدلالة. وتجدر الاشارة الى أنه لا ينبغي الخلط بين سيميوطيقا التواصل والتواصل السيميوطيقي ذلك أن السيميوطيقا هي علم الدلائل ولَيْسَتْ علمَ الناس الذين يتواصلون بالدلائل خاصة وأن الانسان ذاته، في نظر بورس، عبارة عن دليل (59).

ومن جهة ثانية، يمكن اعتبار سيميوطيقا بورس اجتماعية وجدلية، بحيث إن سيميوطيقاه تعتمد على علم الاجتماع، فهي، بالتحديد، اجتماعية لأنها ليست نفسية (60). وهي جدلية لأنها ليست نظرية دليل سكوني أو مادي، وإنما هي نظرية السيميوزيس ونظرية سيرورة إنتاج الدلائل، نظرية السيرورة الجدلية (61). وبذلك، فالشاغل النظري الأساسي يتجلى في العلاقات بين إنتاج المعنى وبناء الواقع واشتغال المجتمع (62).

وتتسم سيميوطيقا بورس، علاوة على ذلك، بأبعاد ثلاثة : بعد تركيبي وبعد دلالي وبعد تداولي. ويعود ذلك إلى أن الدليل ثلاثي. والبعد الأول هو بعد الممثل أو الدليل باعتباره دليلا. ومن البديهي أن الدليل اللساني ليس سوى حالة خاصة. والبعد الثاني هو بعدُ موضوع

(55) نفسه ص 38
(56) نفسه. نفس الصفحة
(57) نفسه. نفس الصفحة
(58) نفسه. ص 38 — 39
(59) نفسه. ص 89
(60) نفسه. ص 200
(61) نفسه. نفس الصفحة
(62) Veron. la sémiosis et son monde in langages N°58 P.74

الدليل أي ما يعيِّنه الدليل أي المعنى. والبعد الثالث هو بعد المؤول الذي يجعل الدليل يحيل على موضوعه لأنّ قواعد الدلالة تتوفر فيه (63).

إن البعد الأول بعدٌ أولي، ويتعلق الأمر بالدلاتل اللسانية وغير اللسانية، ويتشكل من مختلف الوحدات التي يتكون منها الدليل. فلو أخذنا اللغة على سبيل المثال لقلنا إنها تتكون من فونيمات (صُوَيْتات) ومورفيمات (وحدات صرفية) ووحدات معجمية. وتشكل هذه الوحدات البعد التركيبي للدلائل الذي يتكون من الدليل ـــ الكيفية والدليل المفرد والدليل القانون. وباختصار، فإن هذا البعد يتكون من الممثلات les representamen (أو الدلائل منظورا إليها بوصفها دلائل) الموجودة في كل الأنساق السيميوطيقية (64).

أما البعدان الآخران فهما البعد الثانوي الذي يهتم بالمعاني في علاقتها مع سياقها، والبعد الثالثي الذي يُعْنَى بقواعد التأويل أي علاقة الدلائل بالنظر الى مؤولاتها. ولا بد من القول هنا بأن المعاني لا تمدنا بها اللغة بوصفها أولية أو الأشياء بوصفها ثانوية، وإنما تمدنابها «الثالثية أي الفكر الذي هو موضوع التداولية. وإذن، فلا وجود لعلم الدلالة بدون تداولية» (65). ولهذا السبب، فإن دراسة أي نسق دال، من جهة نظر المعنى، لن تكون، إذن، غير دراسة دلالية ـــ تداولية. ذلك أن الدليل المؤوِّل يمدنا بالمعنى أو بالدلالة. «إنه ليس سوى الوسيلة والدعامة الأولية والموقع الثانوي والقاعدة الثالثية لكي يسند معنى أو دلالة إلى موضوع يَمْثُل أمامنا بواسطة الدليل اللساني» (66). إن الاستعمال الذي نقوم به في الممارسة العملية وفي عالم الموضوعات هو الذي يكسب الدلائل المعنى أو الدلالة.

ورغم أن بورس قد فصل بين هذه الأبعاد الثلاثة، فإن التواصل الدال لا يتم من دون تعاونها المشترك الثلاثي ذلك أننا نستمد معنًى (2) دليلٍ لساني معطًى (1)، في التواصل الواقعي، من خلال نسق قواعد استعمالِ الدليل، وهذه القواعد هي التداولية (3) (67).

5. رمزيةُ كاسيرر Cassirer

تقوم رمزية كاسيرر على مجموعة من المنطلقات الفلسفية الخاصة بطبيعة النوع الانساني في تميزها عن طبيعة النوع الحيواني. ذلك أن الانسان يتميز عن كل نوع حيواني بما يمكن تسميته بالنسق الرمزي. وهذا المكسب الجديد من شأنه أن يغير مجموع الحياة الانسانية. فالانسان، بمقارنته مع الحيوانات الأخرى، لا يحيا فقط في واقع جد شاسع، وإنما يحياء إذا صح القول، في بعد جديد للواقع. فما بين ردود الفعل العضوية والاستجابات

(63) Deledalle. Théorie---- P. 137 — 138

(64) نفسه. انظر الصفحات 139 ـــ 146

(65) نفسه. ص 147

(66) نفسه. ص 149

(67) نفسه. ص 137

الانسانية يوجد اختلاف لا ريب فيه. ففي الحالة الأولى، يناسب مثير stimulus خارجي استجابة مباشرة؛ وفي الحالة الثانية، تكون الاستجابة منقولة نقلا غير مباشر. فهي موقوفة ومؤخَّرة من قبل سيرورة الفكر البطيئة والمعقدة (68).

إن الانسان لا يحيا في عالم مادي خالص، وإنما يحيا في عالم رمزي. فاللغة والأسطورة والفن والدين هي عناصر من هذا العالم. إنها جميعا خيوط مختلفة تخلق نسيج الرمزية... وكل تقدم في فكر الانسان وتجربته يعقد هذا النسيج ويقويه. ولا يمكن للانسان، بعد الآن، أن يوجد أمام الحضور المباشر للواقع؛ ولا يمكنه أن يراه وجها لوجه، إذا صح ذلك. إذ يبدو أن الواقع المادي يتراجع بمقدار ما يتقدم النشاط الرمزي. إن الانسان، بشكل من الأشكال، يبتعد عن إقامة علاقة مع الأشياء ذاتها ويتقابل مع نفسه على الدوام. إذ تحيط به أشكال لسانية وصور فنية ورموز أسطورية وطقوس دينية بحيث لا يمكنه أن يرى أي شيء وأن يعرف أي شيء دون تدخل هذا العنصر الوسيط الاصطناعي.... إن العالم العملي للانسان ليس عالم وقائع خام حيث يعيش حسب رغباته وحاجاته المباشرة. بل إنه يعيش أهواءه وأحلامه في وسط الانفعالات الخيالية وفي الأمل والخشية والأوهام والحقائق (69).

وينتهي كاسيرر إلى أن مصطلح العقل ليس ملائما لاستيعاب أشكال الحياة الثقافية للانسان في غناها وتنوعها. وهذه الأشكال جميعها أشكال رمزية. ومن هنا، يرى كاسيرر ضرورة تعريف الانسان بوصفه حيوانا رمزيا animal symbolicum (70). وبهذا التعريف، نتمكن من تعيين الاختلاف الخصوصي للانسان. لكن، ما معنى الرمز عند كاسيرر ؟ يؤكد كاسيرر، محاولا تحديد مفهوم الرمز، أن الرموز — منظورا إليها في معناها الخاص — لا يمكن إرجاعها الى مجرد علامات. إن العلامات والرموز تنتسب الى عَالَمَيْن خِطابيين مختلفين : فالعلامة عنصر من العالم الفيزيقي للكائن، بينما الرمز عنصر من العالم الانساني للمعنى. إن العلامات عبارة عن «إجرائيات» «opérateurs»، بينما الرموز عبارة عن «مُشيرات» «indicateurs». وحتى لو فُهمت العلامات واستُعْمِلَت بوصفها إجرائيات، فإن لها، مع ذلك، نوعا من الوجود الفيزيقي أو المادي؛ أما الرموز فلها قيمة وظيفية لا غير (71).

ومن هذا المنطلق، يعالج كاسيرر قضية ذكاء الحيوانات فيخلص إلى أن للحيوانِ خيالا وذكاء عمليين بينما تمكن الانسان من تطوير شكل جديد لا غير : أي خيال وذكاء رمزيين (72).

(68) Essai sur l'homme P. 43
(69) نفسه ص 43 — 44
(70) نفسه ص 44 — 45
(71) نفسه ص 53 — 54
(72) نفسه ص 55

لقد انتقل الانسان من موقف عملي صرف إلى موقف رمزي، ومن استعمال الدلائل والبانتوميم pantomime إلى استعمال الكلمات أي الرموز. ويقتضي فهم اللغة الانسانية وفهم ما تدل عليه أن يفهم الطفل أن **لكل شيء اسما**، وأن يفهم أن الوظيفة الرمزية لا تقتصر على حالات خاصة وإنما هي مبدأ قابلية للتطبيق كلية يغطي حقل الفكر الأنساني كله. فالطفل يتعلم كيف يستخدم الكلمات، لا بوصفها مجرد دلائل أو علامات ميكانيكية، وإنما بوصفها أداة فكر أصيلة تمام الأصالة (73). هكذا، إذن، نتمكن من فهم رمزية اللغة الانسانية .

إن مبدأ الرمزية، من خلال خاصيته الكلية وقوته وقابليته للتطبيق العامة، هو الكلمة السحرية وشمشون العالم الانساني، إنه كلمة الثقافة (74).

ويذهب كاسيرر الى أن حياة الانسان، بدون الرمزية، ستكون مماثلة لحياة سجناء الكهف حسب صورة أفلاطون الشهيرة. لكنها ستكون مقتصرة على الحاجيات البيولوجية والمصالح العملية، ولن تجد أي مدخل الى «عالم المثل» الذي يَفتحه أمام الانسان الدين والفن والفلسفة والعلم بطرق مختلفة (75). إن الانسان، قبل أن يكتشف، بكثير، الشكل السياسي للتنظيم الاجتماعي (أي الدولة)، كان قد حاول تنظيم مشاعره ورغباته وأفكاره. وهذه التنظيمات والتنسيقات متضمَّنة في اللغة والأسطورة والدين والفن (76). إن فلسفة الأشكال الرمزية تنطلق من الافتراض القائل بأنه إذا وُجِدَ تعريف طبيعة الانسان أو «جَوْهَره»، فإن هذه الطبيعة ينبغي أن تُفهَم باعتبارها تعريفا وظيفيا لا تعريفا ماديا. فلا يمكن أن يعرَّف الانسان من قبل أي مبدإ ملازِم يشكل جوهره الميتافيزيقي، كما لا يمكن أن يعرَّف من قبل أية ملكة فطرية أو غريزة قابلتين لأن يُتَأكَّد منهما بواسطة الملاحظة الأمبريقية. إن الخاصية المهيمنة للانسان وملمحه المميز ليس هو جوهره الميتافيزيقي، وإنما هو نتاجه. إن هذا النتاج ونسق أنشطته هو الذي يعرف دائرة «الانسانية» ويحددها. واللغة والأسطورة والدين والفن والعلم والتاريخ مكونات هذه الدائرة وقطاعاتها المتنوعة (77). ومن الملاحظ أن الفكر الفلسفي يكشف، من خلال تعدد الصور الأسطورية والمذاهب الدينية والأشكال اللسانية والنتاجات الفنية وتنوعها اللانهائيين، عن وحدة وظيفة عامة تربط بين كل هذه الابداعات. إن الأسطورة والدين والفن واللغة وحتى العلم تعتبر بوصفها تنويعات على الموضوع المشترك (78).

(73) نفسه ص 57
(74) نفسه ص 58
(75) نفسه ص 65
(76) نفسه ص 97 — 98
(77) نفسه ص 103
(78) نفسه ص 107

ويعتقد كاسيرر أنه ليس بوسع الانسان أن يقوم، في اللغة والدين والفن والعلم، بأي شيء أكثر من بناء عالمه الخاص، عالم رمزي يجعله قادرا على فهم تجربته وتأويلها والتلفظ بها وتنظيمها وتوليفها وجعلها كلية (79). ومؤدى ذلك أن المعرفة الانسانية، في طبيعتها، معرفة رمزية، وأن الرمز لا وجود له فعليا باعتباره جزءا من العالم الفيزيقي، إن له «دلالة» (80). بل الأدهى من ذلك، إن وقائع العلم تستلزم، دائما عنصرا نظريا، أي، رمزيا (81).

وبخصوص الذاكرة الرمزية، فإنها، عند كاسيرر، السيرورة التي لا يكرر الانسان فحسب بواسطتها تجربته الماضية، وإنما يعيد، أيضا، بناءها (82). إن الذاكرة تستلزم سيرورة تعرّف وتحديد، سيرورة مثالية جد معقدة. فالانطباعات السابقة لا ينبغي فقط أن تُكرَّر وإنما ينبغي أيضا أن ترتَّب وتُمَوْضَعَ وتُحَالَ على مختلف لحظات الزمن (83). إنها ليست تكرارا للماضي، وإنما هي ولادة جديدة تستلزم سيرورة الخلق والبناء. إنه لا يكفي الوقوف على العناصر المعزولة لتجربتنا الماضية، وإنما يتعلق الأمر، في الحقيقة، بتجميعها وتنظيمها وتوليفها وجمعها في منطقة ما من الذهن (84).

وبذلك يمكن القول إن الثقافة، في مجموعها، يمكن أن ينظر إليها بوصفها عملية التحرر التدرجي للانسان. واللغة والفن والدين والعلم هي اللحظات المختلفة لهذه العملية. وفي كل لحظة من هذه اللحظات يكتشف الانسان سلطة جديدة ويبرهن عليها ــ إنها سلطة بناء عالمه الخاص، العالم «المثالي» (85). ويبدو أن الأطروحة الكبرى التي يوضحها كاسيرر تكمن في أن الذهن ينتج ويبني موضوع معرفته الخاص. ويترتب عن ذلك تصور منطقي للرياضيات ومقاربة سيميوطيقية للثقافة منظورا إليها باعتبارها إعدادا «لأشكال رمزية» (86).

6. سيميوطيقا الثقافة

ينطلق هذا الاتجاه الذي نشأ في كل من روسيا (يوري لوتمان، أوسبانسكي Ouspensky، إيفانوف Ivanov، طوبوروف Toporov...) وإيطاليا (أمبرطو إيكو، روسي لاندي...) من اعتباره الظواهر الثقافية موضوعات تواصلية وأنساقا دلالية.

(79) نفسه ص 307
(80) نفسه ص 86
(81) نفسه ص 89
(82) نفسه ص 80
(83) نفسه ص 78
(84) نفسه ص 79
(85) نفسه ص 317
(86) Rey. Théories du signe et du sens. II. P. 163

إن العلاقات الاجتماعية الانسانية لا تقوم مالم تنسج علاقات تواصلية. ويتوخى الانسان في نشاطه جميعه وفي فعاليته إعداد الاخبار وتبادله والحفاظ عليه. وانطلاقا من هذا الاعتبار، فإن الثقافة يمكن أن تُعَرَّفَ بوصفها مجالا لتنظيم الاخبار في المجتمع الانساني، فتعتبر بذلك آلية الثقافة بمثابة جهاز يغير المحيط الخارجي الى محيط داخلي إذ يحوّل الفوضى الى نظام والناس الغفل الى متعلمين ومرتكبي الخطايا الى عادلين وانحطاط الطاقة L'entropie الى إخبار (87).

وبهذا المعنى، فإن الثقافة لا تقوم إلا في الوقت الذ يصنع فيه الانسان أدوات للسيطرة على الطبيعة. ومن المعلوم أن الأداة ذاتها لا تبرز الى الوجود إلا حينما يقام نشاط رمزي. وفي هذا السياق، يرى أمبرطو إيكو أن الثقافة لا تنشأ إلا حينما تتوفر الشروط الثلاثة التالية :

أ — حينما يسند كائن مفكر وظيفة جديدة للشيء الطبيعي... .

ب — حينما يسمي ذلك الشيء باعتباره يُسْتَخدم إلى شيء ما، ولا يشترط أبدا قول هذه التسمية بصوت مرتفع كما لايشترط فيها أن تقال للغير.

ج — حينما نتعرف على ذلك الشيء باعتباره شيئا يستجيب لوظيفة معينة وباعتباره ذا تسمية محددة، ولا يُشْتَرَطُ استعماله مرة ثانية وإنما يكفي مجرد التعرف عليه.

وعلاوة على ذلك، فإن هذه الشروط الثلاثة لا تستلزم وجود كائنين إنسانيين، بل إن هذا الوضع ممكنٌ حتى في حالة روبنسون كريزيوي Robinson Grusoé الغريق المنعزل. إلا أنه من الضروري، بالنسبة الى الشخص الذي يستعمل هذا الشيء لأول مرة، أن يكون قادرا على مواجهة إمكان نقل الاخبار المكتسب ل «أنا» الغد، وإذن لا بد أن يكون قادرا على معرفة إعداد صناعة تذكرية. فاستعمال ذلك الشيء مرة واحدة ليس من قبيل ماهو ثقافي، لكن الثقافي يكمن في ضرورة تكرار الوظيفة ونقلها إخبار غريق «اليوم» المنعزل الى نفس غريق «الغد» المنعزل، والثقافي أيضا يكمن في كيف يتأتى لتلك الوظيفة أن تتكرر وأن تنقل الاخبار بنفس الطريقة المذكورة أعلاه. إن المنعزل يتحول الى مرسل تواصلٍ ومتلق له. ومن الواضح أن تعريفا مثل هذا التعريف يمكن أن يستلزم تماهي الفكر واللغة، ويتعلق الأمر بأن نقول — مع بورس — إن حتى الأفكار تعتبر دلائل. إلا أن المشكل لا يطرح بهذه الطريقة القصوى إلا حينما نتوقف عند مثال الغريق الذي يتواصل مع نفسه. ومنذ أن يتعلق الأمر بفردين، يكون من الممكن دراسة هذه القضية بمنطق ناقلات الدليل القابلة للملاحظة لا بمنطق الأفكار (88).

(87) Ivanov et autres. Thèses pour l'Etude sémiotique des cultures in Recherches internationales à la lumière du marxisme N°81 P. 126

(88) Eco. la structure absente. P. 26 — 27

إن الثقافة، إذن، لا تنشأ إلا حينما نتمثل الخارج تمثلا داخليا وذاتيا أي حينما ننتقل من الطبيعي بواسطة الفكر وبواسطة التجريد فنسمي الأشياء الطبيعية ونسند إليها وظيفة معينة ونقوم بتذكرها على تلك الهيئة. ويعني ذلك تمييز الأشياء عن بعضها البعض بواسطة الفكر ووضع سمات لها تميزها عن باقي الأشياء وتستحضرها في حال غيابها المادي. وبذلك، فإن الدلائل تتَمَاهَى مع الفكر.

وعليه، فإن الثقافة تنشأ كلما تحولت أية وظيفة، بصفة آلية، إلى دليل لهذه الوظيفة. إن الثقافة تقوم بانتقاء بعض الظواهر فتسند إليها وظيفة «دلائل» في الوقت الذي تُبَلِّغُ فيه شيئا ما في شروط ملائمة (89). إلا أنه يمكن أن نميز داخل الظواهر الثقافية تلك الظواهر التي هي «دلائل» عن تلك الظواهر التي يبدو أن لها وظائف أخرى غير التواصل، فالسيارة، مثلا، تستعمل للنقل لا للتواصل (90).

إن الحديث عن الثقافة لا يصح بمعزل عن الذاكرة بحيث إن جوهر الثقافة ينبغي أن ينظر إليه بوصفه ذاكرة. يقول إيفانوف وآخرون : «إننا لو اعتبرنا جماعة ما بوصفها فردا ذا بنية مركبة، فإنه يمكن أن تُفهم الثقافة، في تماثلها مع الآلية الفردية للذاكرة، باعتبارها جهازا جماعيا للحفاظ على الاخبار ومعالجته» (91). ولهذا السبب، فإنهم يرون أن البنية السيميوطيقية للثقافة والبنية السيميوطيقية للذاكرة تمثلان ظواهر من نمط واحد وظيفيا ومتموقعة في مستويات مختلفة. ولا يناقض هذا الاقتراح ديناميكية الثقافة : إذ يمكن للثقافة، أيضا، إلى جانب كونها مبدأ ترسيخ التجربة السابقة، أن تلعب دور البرنامج وأن تشتغل بوصفها تعليمات قصد خلق نصوص جديدة (92).

يبدو، ضمن هذا المنظور، أن الثقافة ترسخ التجربة السابقة. بواسطة التذكر أو الصناعة التذكرية. إن الانسان يراكم ويُعِدُّ الاخبار المستعمل لادخال تصحيحات ضرورية في برامج السلوك. ويعني ذلك أن حصيلة عمل الانسان تكمن في سلوك ذي معنى، وهذا السلوك ليس سوى إنجاز لبرنامج معين. وهذا البرنامج المعين هو الثقافة. بل يصح القول إن الثقافة تلعب دور البرنامج. إنها تلك التعليمات التي تتحكم في كل سلوك الانسان أو التي يصدر عنها كل سلوك إنساني. أي إننا نصوغ من خلال الثقافة (= البرنامج والتعليمات) الواقع الذي نعيش فيه والعالم الذي نحيا فيه.

وتتكون الثقافة من عدة أنساق دالة مادام لكل سلوك معنى؛ وما دمنا نتواصل بواسطة سلوكاتنا، فهذه الأنساق أنساق تواصلية تتراوح بين الأنساق الأكثر تعقيدا والأنساق الأقل

(89) نفسه. ص 23

(90) نفسه. ص 25

(91) Ivanov et autres op.cit P.143

(92) نفسه. ص 143 — 144

تعقيدا، ويتعلق الأمر باللغات الطبيعية واللغات الاصطناعية والفنون والأساطير والطقوس... الخ. وإذا كان الأمر كذلك، فـ «إن نسقا سيميوطيقا معزولا، مهما كان تنظيمه كاملا، لا يمكنه أن يشكل بمفرده ثقافة... ذلك أن النزوع نحو لا تجانس اللغات يعتبر ملمحا مميزا للثقافة» (93).

إن إدراك الانسان للعالم الحسي إدراك تبرمجه الثقافة بواسطة أنساقها الدالة اللفظية أو غير اللفظية التي تؤطر عمل الانسان وممارسته الاجتماعية. ولذلك يمكن اعتبار الثقافة نسقا مكونا من عدة أنساق أو من عدة لغات. وليست كل لغة من هذه اللغات نسقا تواصليا فحسب، بل هي نسقٌ مُنَمْذِج modelant، أو بالأحرى، فإن الوظيفة التواصلية والوظيفة المنمذجة وظيفتان مرتبطتان بشكل لا انفكاك فيه (94)، أي أن هذه الأنساق تُنَمْذِج الكلي في مقولاته العامة. وإذا كان النسق المنمذج الأول هو اللغة الطبيعية، فإن الأنساق المنمذجة الثانية هي باقي الأنساق الدالة. ويقصد لوتمان ب «الثانوية» كون هذه الأنساق أنساقاً تستخدم اللغة الطبيعية بوصفها أداة أولية (95). ويعتقد يوري لوتمان أن اللغة الطبيعية ليست نسقا من الأنساق المبكرة فحسب، بل هي كذلك النسق الأقوى للتواصل داخل الجماعة الانسانية. فهي تمارس، بفضل بنيتها ذاتها، تسلطا قويا على نفسية الأفراد وعلى جوانب عديدة من الحياة الاجتماعية. أما الأنساق المنمذجة الثانوية فهي تُبْنى على منوال نمط اللغة (96).

لا يمكن، إذن، إلا أن نتصور الثقافة بوصفها نسقا عاما يتكون من أنساق ثقافية تصوغ بدورها العالم بشكل خاص ومتفرد وخاضع لقوانين ثقافية خاصة. وبذلك فالثقافة ذات لغات غير متجانسة لأنها متعددة ومتنوعة، وكُلَّما اخترتَ نسقا إلا واخترتَ نمذجة خاصة للعالم يطبعها نظام النسق الذي اخترته.

وباعتبار الثقافة نسقَ أنساق معتمد في نهاية التحليل على لغة طبيعية، فإنه يمكن اعتبارها هرما من الأنساق الدالة المزدوجة التي يتحقق تعالقها، إلى حد كبير، بواسطة علاقتها مع نسق اللغة الطبيعية (97).

إن كل نسق ثقافي نسقٌ تواصلي ذلك أن الموضوع الثقافي قد صار بمثابة المحتوى الممكن لأية عملية تواصلية وأن كل تواصل يستلزم، بالضرورة، تبادل علامات. ومن جهة ثانية، ينبغي أن يُنْظَر الى الظواهر الثقافية بوصفها مدلولات يتواصل بها الناس.

(93) نفسه. ص 146
(94) Lotman. la structure du texte artistique P. 42
(95) نفسه. ص 36
(96) نفسه. ص 36 — 37
(97) Ivanov et autres op.cit P.147

وبذلك يكون كل تواصل عبارة عن تواصلٍ بواسطة سلوك مبرمَج، ويكون بمقدور كل نسق توصلي أن يؤدي وظيفة، كما يمكن لأي نسق مُنَمْذِج أن يقوم بدور تواصلي. وفي هذا الاطار، يرى أمبرطو إيكو أن الثقافة ليست تواصلا فحسب، بل ينبغي، حتى نفهمها بشكل أفضل، أن نتناولها من زاوية مظهرها التواصلي (98)، ذلك أن قوانين التواصل هي قوانين الثقافة (99). إن هناك، إذن، تساوقا بين القوانين المُنَظِّمَةِ للتواصل والقوانين المُنَظِّمَةِ للثقافة. بل يمكن القول إن قوانين التواصل هي قوانين ثقافية. ومن جهة ثانية، فإن قوانين الأنساق السيميوطيقية هي قوانين ثقافية.

هكذا يبدو أن كل كيان ثقافي يمكنه أن يكون ظاهرة سيميوطيقية (100) وأن الثقافة يمكنها أن تُدْرَسَ جميعُها من جهة نظر سيميوطيقية (101) لأن كل ظاهرة ثقافية عبارة عن وحدة دلالية (102) أو لأن المدلول وحدة ثقافية.

وبذلك تُقْلب فرضية سابير وورف Sapir-Worf. فنحن لا نصوغ العالم وفق عالَم اللغة، أي أن اللغة لا تحدد نظرة الانسان الى العالم إلا جزئيا. وإنما يُنَمْذِج الانسان صورة العالم من خلال ثقافته المتنوعة، أي أن إنتاج المعنى خاضع لمقومات ثقافية.

وبناء على هذا التصور، فإن السيميوطيقا هي العلم الذي يُعْنَى بدارسة الظواهر الثقافية باعتبارها عمليات تواصلية. وبالتالي، فإنه يمكن للظواهر الثقافية ــ ويجب عليها ــ أن تصير موضوعاتٍ للتواصل. ومن ثمة تعود كل ظاهرة ثقافية، بالضرورة، الى السيميوطيقا.

وإذا كانت السيميوطيقا تُعْنَى بالثقافة في شموليتها، وكانت العلوم تُعْنَى بظواهر خاصة من سيميوطيقا الثقافة، فإن السيميوطيقا تشمل مختلف العلوم وترادف الى حد ما، الابيستيمولوجيا.

وإذا كانت تلك هي السيميوطيقا كما فهمها يوري لوتمان وأتباعه وأمبرطو إيكو، فإن روسي لاندي يذهب في تحديده للسيميوطيقا إلى أبعد من ذلك انطلاقا من أبعاد البرمجة. وأبعاد البرمجة، عنده، ثلاثة هي :

1 ــ أنماط الانتاج (مجموع قوى الانتاج وعلاقات الانتاج)،
2 ــ الاديولوجيات (تخطيطات اجتماعية لنمط عام)
3 ــ برامج التواصل (التواصل اللفظي وغير اللفظي)

(98) Eco. la structure absente P.28
(99) نفسه. ص 30
(100) نفسه. نفس الصفحة.
(101) نفسه. نفس الصفحة.
(102) نفسه. ص 28

وتجد السيميوطيقا، في نظره، موقعها الخاص ودلالتها وأساسها على امتداد دراسة أنماط الانتاج والايديولوجيات داخل محيط البرمجة الاجتماعية لكل السلوكات (103). وهكذا، تنتمي دراسة البعد الأول الى تعرية الاقتصاد البورجوازي، وينتمي هذا البعد، بعد استيلاء البروليتاريا على السلطة، الى تخطيط الانتاج الاشتراكي. أما دراسة البعد الثاني فتنتمي الى نظرية الايديولوجيات المدركة بوصفها تخطيطات اجتماعية تعتمد على أنماط الانتاج وتتغير تبعا لتغيرها، إلا أنه يتعين عليها، في نفس الوقت، أن تنفصل عن أنماط الانتاج من خلال العديد من التوسطات وتعود، علاوة على ذلك، لتفعل في أنماط الانتاج ذاتها. وبخصوص البعد الثالث الذي يعد توسطا بين البعدين الأولين ويجعل من الممكن، من بين أشياء أخرى، تأثيرهما المتبادل، فإنه بدونه يتعذر على البعدين الأولين أن يوفرا لنا وصفا تاما للبرمجة الاجتماعية للسلوك الاجتماعي ذلك أن هذه البرمجات هي التي تتحكم في التواصل اللفظي أو غير اللفظي (104).

ومثل هذا التصور يركز على علاقة الدليل بالسياسي. ويبدو أن المسلمة الثابتة لهذا التحليل تكمن في كون «نظرية الدليل تستلزم نظرية المجتمع، ونظرية المجتمع تستلزم نظرية الدليل» (105). وإذن، فلا بد من أن تناسبَ جدليةَ الدليل المادية التاريخية والجدلية. فداخل نظرية السلطة، لا يمكن للغة (ولا لأي نسق دال كيفما كان) إلا أن تكون خاضعة للسلطة : إما مع السلطة وإما ضدها، وعليه فلا بد من بناء علاقة ضرورية بين السياسي واللساني (والسيميوطيقي) (106).

ولقد سبق لروسي لاندي أن رأى أن السيميوطيقا بوصفها علما شاملا للدليل وللتواصل (اللفظي وغير اللفظي ومهما كان المجال المدروس) ينبغي أن تُعْنَى مباشرة لا بالتبادل وتطوراته، بل ينبغي أن تُعْنَى أيضا بالانتاج والاستهلاك، لا بقيم التبادل الدلالية فحسب، بل بقيم الاستعمال الدلالية أيضا. ومن الواضح أن قيم التبادل الدلالية لا يمكنها أن توجد بدون قيم الاستعمال الدلالية، وأن قيم الاستعمال الدلالية لايمكنها أن تتجسد بدون قيم التبادل الدلالية. وبالتالي، فالسيميوطيقا لا يمكنها أن تُعْنَى فقط بالطريقة التي تُتَبَادل بها البضائع والنساء باعتبارها رسائل، لأنها ينبغي أن تُعْنَى، أيضا، بالطريقة التي تم بها إنتاج هذه الرسائل (= البضائع والنساء) واستهلاكها (107). ويتصور روسي لاندي أن ليست هناك اختلافات في

(103) Rossi-landi. linguistics and Economics P. 203

(104) نفسه ص 202 — 203

(105) Meschonnic. le signe et le poème P. 248

(106) نفسه. ص 249

(107) نقلا عن Rey. Théories du signe et du sens. II. P. 319

البعد بين النشاط الدلالي ــ الاقتصادي والنشاط الدلالي ــ اللفظي (108)، فماركس Marx خلق سيميوطيقا الاقتصاد، وينبغي أن تكون سيميوطيقاه هي النموذج. وهكذا، فاللغة التي يُعنى بها السيميوطيقي هي لغة علاقات العمل والتبادل والأنتاج والاستهلاك باعتبارها هي الواقع. وبذلك تكون العلاقات الانسانية هي لغة الواقع. غير أن هذه اللغات، كما بين ذلك ميشونيك Meschonnic في دراسته لسيميوطيقا ماركس (109)، خادعة ومُضَلّلة إذ تتعارض مع الواقع ومع معرفة الواقع، إنها لغات كاذبة ومنافقة وواهمة، بل هي النفاق المؤسسي. ولأن اللغة هي لغة السلطة فهي تكذب مثلما تكذب السلطة. غير أن اللغة تفضح وتعري أيضا، إنها تفضح ذاتها حالما تتواجه مع الوقائع. وإذن، فاللغة تقوم بوظيفتيْن متناقضتين : فهي، من جهة، تتكلم وتجعلها تتكلم عن نفسها لاخفاء الأشياء؛ وهي، من جهة ثانية، لغة الأشياء ذاتها. وبهذا المعنى ترادف اللغة (أو الدليل) الوعيَ والايديولوجيا والمحتوى.

إن نظرية الدليل تجد نفسها تنسج علاقة مع الاقتصاد ذلك أنها نظرية إنتاج المعنى وتوزيعه وتبادله واستهلاكه. ولا تصف هذه النظرية غير نظام التضليل وغياب الواقع لأن الدليل يبقى فارغا ومتخيَّلا. وبهذا تُحقِّق لغةُ البضاعة سيميوطيقا ملموسةً وسيميوطيقا خاصة للاقتصادي والسياسي. وإذن، فإن الوقائع التي تتكلم لا تعيِّن إخبارا صادقا إلا حينما تكون لغتها سيميوطيقة.

بهذا المعنى تكون السيميوطيقا تعريةً للايديولوجيا ونقداً لها وفضحا للبرمجة الاجتماعية للسلوك الانساني. إن السيميوطيقا علم ينتقد ميتافيزيقيا الدليل ويحرر الدليل من الاستيلاب ويكشف عن الاخبار الصادق ويبنيه ويخلق المعنى المنفلت من إسار الايديولوجية. بذلك تكون هذه السيميوطيقا إنسانيةَ المنزع باعتبارها نظرية الانسان والتاريخ.

7. السّيميوطيقا ومسألة المرجع

يمكن أن ننظر الى المقاربات السابقة لقضايا السيميوطيقا وقضايا الدليل باعتبارها مختلفة. فمن مقاربة تقتصر على الدال والمدلول ومقاربة ثانية تضيف الى ذلك الايديولوجيا والعالم والمجتمع الى مقاربة تعطي موقعا للشيء. ولقد لعب المناطقة وفلاسفة اللغة، على وجه الخصوص، دورا كبيرا في تحديد هذا الشيء وإيجاد وضع له داخل الدليل خاصة وأن موضوع التواصل، في عمومه، هو الواقع الخارج لساني.

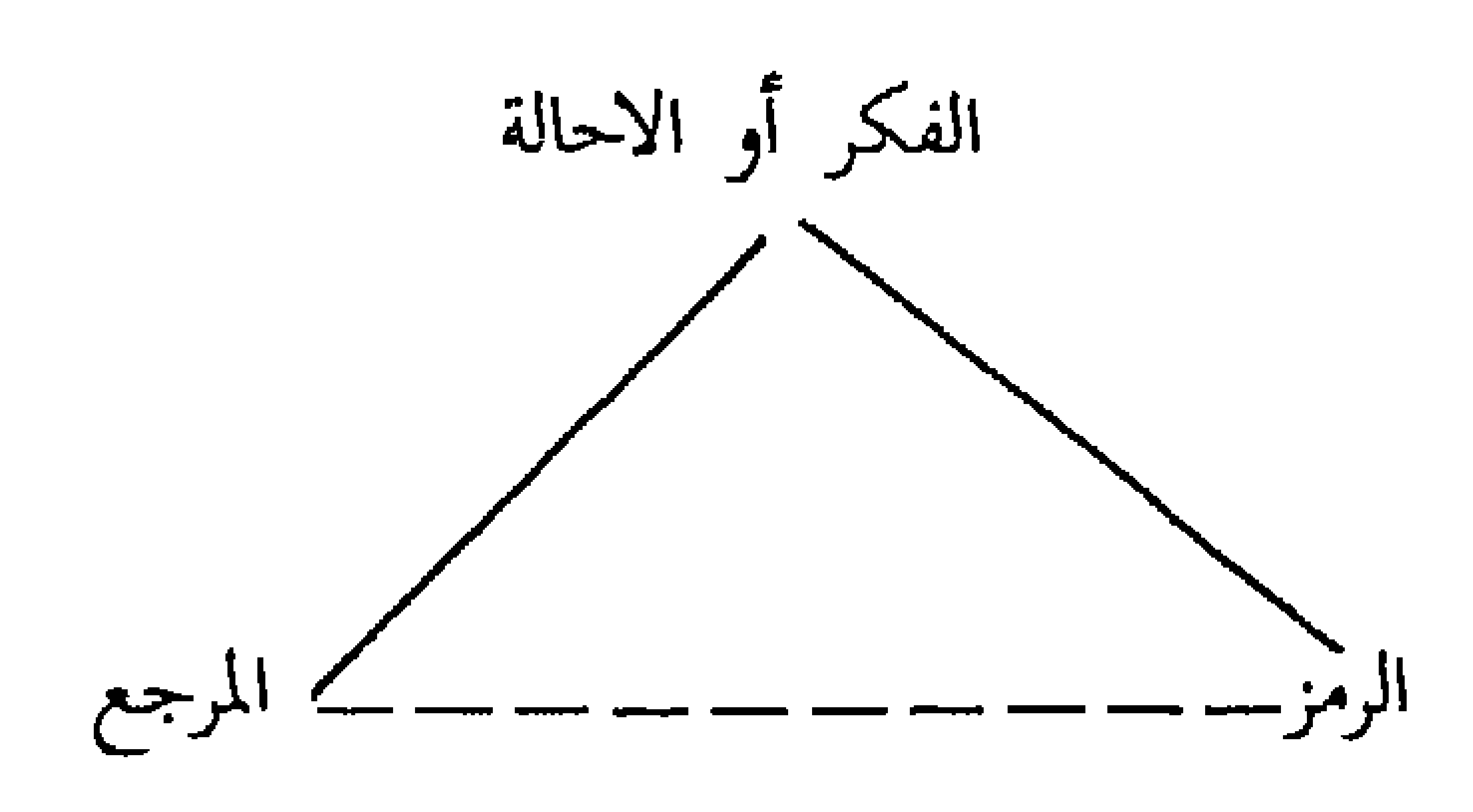
ومن المعلوم أن اللسانيات لم تذكر المرجع إلا لتعتبره مجالا ينبغي إبعاده. ولم تلجإ اللسانيات، وبالتالي السيميوطيقا، إلى مشكلة الاحالة إلا تحت تأثير المناطقة وفلاسفة اللغة. وقد ظهرت هذه المشكلة الى الوجود بجانب قضايا التداولية وفعل القول.

(108) نفسه. ص 320

(109) انظر الصفحات 261 ــ 273 من كتاب Le signe et le poème

لقد سبق لكوتلوب فريج Gottlob Frege، في القرن التاسع عشر، أن ميَّز الاحالة عن الدلالة، فالمعنى Sinn، عنده، يناسب، على وجه التقريب، القيمة السوسيرية بينما يعني Bedeutung «التعيينَ» désignation أو الوضعَ dénotation أو الاحالةَ reférence. ويبدو من الطبيعي، في رأي فريج، أن نربط بدليل ما، بالاضافة الى ما يعيِّنه والذي يمكن تسميته بالوضع dénotation، ما يود تسميته معنى Sens (sinn) الدليل. فتعيين «نجمة المساء» و «نجمة الصباح» هو نفس التعيين، أي أنهما يقدمان نفس الاحالة المنطقية، إلا أن المعنى يختلف (110). والعلاقة بين الدليل ومعناه ووضعه تكمن في كون المعنى يناسب الدليل وكون وضع معين يُناسب المعنى، بينما يمكن لوضع مفرد (شيء واحد) أن يَقبل أكثر من دليل (111). أما التمثيل représentation المترابط مع دليلٍ ما، فينبغي أن يتميز عن وضع هذا الدليل وعن معناه. فإذا كان دليل ما يعيِّن شيئا قابلا لأن يدرك بواسطة الحواس، فإن تمثيلي عبارة عن قائمة داخلية مكوَّنة من تذكر الانطباعات المحسوسة وردود الفعل الخارجية والداخلية التي خضت غمارها (112). ويرى فريج أن لكل جملة أو لكل قضية معنى وتعييناً، ويشكل هذا التعيين وحدة استبدالية ذات طرفين لاغير : الصدق والكذب أي ما يسميه بقيمة صدق القضية *valeur de vérité*. وعليه، فإن مسألة الاحالة ترتبط بالصدق أو الكذب لأن قيمة الصدق ليست المعنى بل هي الشيء (113).

أما أوكدن Ogden وريتشاردز Richards فقد أدمجا المرجع في تعريفهما للدليل ليدلًّا به على أي شيء أو على مجموعة من الأشياء الموجودة في العالم الخارجي. بينما استعملا «الاحالة» ليعنيا بها المفهوم الرابط والوسيط بين الكلمة (أو التعبير) والمرجع (114) :



(110) نقلا عن Rey. Théories du signe et du sens. II. P. 74
(111) نفسه ص 75
(112) نفسه ص 76
(113) نفسه ص 78 — 79
(114) نفسه ص 112 — 113

أما تشالز موريس Charles Morris فيرى أن العناصر الثلاثة للسيميوزيس يمكن أن تسمى على التوالي الدليل ــ الناقل sign vehicle (أي العنصر الذي يشتغل بوصفه دليلا) والمعيَّن designatum (أي العنصر الذي يحيل عليه الدليل) والمؤوّل (أي الأثر الناتج على الشخص الشارح). ويضيف تشارلز موريس الى هذه العناصر الثلاثة عنصراً رابعا هو الشخص الشارح interprète (115). غير أنه يميز المعيَّن عن الموضوع له denotatum. فإذا كان الشيء الذي نحيل عليه موجودا بالفعل، فإن موضوع الاحالة يسمى بالموضوع له denotatum، أما معيَّن الدليل فهو نوع الأشياء التي يطبق عليها الدليل أي الأشياء التي تتوفر فيها الخاصيات التي يأخذها الشخص الشارح بعين الاعتبار بواسطة حضور الدليل ــ الناقل (116).

وبخصوص كارناب Carnap الذي ينطلق من المعيِّنات désignateurs (وهي الجمل الخبرية والتعابير الفردية والوحدات المحمولية) فهو يرى أن معيِّنين إذا كانا متعادلَين (أي إذا كانا كاذبين معا أو صادقين معا)، فإننا نقول إن لهما نفس الماصدق extension، وإذا كانا، بالاضافة الى ذلك، متعادلين منطقيا (والتعادل المنطقي يعني أن تعادل المعيِّنين ــ وتعادلهما لاغير ــ ينبثق من القواعد الدلالية وحدها)، فإننا نقول بأن لهما، أيضا، نفس المفهوم intension... ويعتبر كارناب قيمة صدق الجملة (صدقها أو كذبها) بوصفها ما صدقاً في حين يعتبر القضية التي تعبر عنها الجملة بوصفها مفهوما (117).

بل إن مبحث المرجع لم يقف عند هذا الحد. ذلك أن ستراوسون Strawson قد عمل على توسيعه وانفتاحه على التجربة الحياتية المعيشة حتى صار المفهوم مفضيا الى التداولية.

لقد عالج ستراوسون المشاكل المرتبطة ارتباطا وثيقا بمشاكل الاحالة مثل مشكل الذكر la mention ومشكل صدق التقريرات assertions وكذبها ومشكل الاقتضاء présupposition ومشكل العلاقات بين الخطاب والعالم الواقعي. فإذا تلفظت بجملة «كان نابوليون أعظم جندي فرنسي»، فأنا أستعمل كلمة «نابوليون» لأذكُر شخصا مخصوصا، إلا أنني لا أستعمل المركب «أعظم جندي فرنسي» لِذكر شخص ما، وإنما أستعمله لأقول شيئا عن شخصٍ سَبَقَ لي أن ذكرته. فمن الطبيعي القول إنني باستعمالي لهذا المركب أتحدث عن نابوليون وأن ما أقوله عنه هو أنه كان أعظم جندي فرنسي. لكن، يمكنني، بطبيعة الحال، أن أستعمل تعبير «أعظم جندي فرنسي» لذكر شخص ما، مثلا : «أعظم جندي فرنسي مات في المنفى». وهكذا، فإن بعض التعابير... يمكن أن تكون لها استعمالات أخرى غير تلك

(115) نفسه ص 82 وانظر أيضا fondemets de la théorie des signes in langages N°35

(116) Rey. Théories du signe et du sens. II P.83

(117) نفسه ص 85

التي يقوم ستراوسون بدراستها (118). وإذا تلفظت بجملة «ملك فرنسا ملك حكيم»، فإنه لا أحد سيقول إن الجملة المتلفظ بها جملة غير دالة. وسيوافق الجميع على أن الجملة دالة. إلا أن الجميع يعرف أنه لا وجود في الوقت الحاضر لملك بفرنسا. ولذلك وجب القيام بالتمييزات التالية :

(أ 1) جملة

(أ 2) استعمال جملة

(أ 3) فعلُ قولٍ جملة ما.

كما ينبغي، بموازة ذلك، القيام بالتمييزات التالية :

(ب 1) تعبير

(ب 2) استعمال تعبير

(ب 3) فعلُ قولٍ تعبير ما

آنذاك يمكن أن نتخيل أن الجملة قد قيلت في فترات مختلفة منذ القرن السابع عشر. إننا أمام **نفس الجملة الواحدة**، إلا أن هناك اختلافات جلية بين **مناسبات استعمال** هذه الجملة أو اختلافات في الاستعمال إذ قد تكون صادقة في استعمال وكاذبة في استعمال آخر. ومن الممكن ألا يكون الاستعمال مختلفا وتكون أفعال القول مختلفة. إننا حينما نستعمل تعبير «ملك فرنسا» فإنه يمكن أن نقول، في هذه الحالة، إننا **نستعمل** التعبير **لذكر** شخص معين أو للاحالة عليه. إلا أن الذكر أو الاحالة عبارة عن خاصية لاستعمال التعبير، وهكذا فإن الصدق والكذب خاصيتان لاستعمال الجملة (119).

ويبدو من الضروري تسجيل الفروقات التالية : الدلالة عبارة عن وظيفة للجملة أو التعبير؛ والذكر والاحالة وكذلك الصدق والكذب عبارة عن وظائف استعمال الجملة أو التعبير. فاسناد دلالة إلى جملة يعني إعطاء **التوجيهات** العامة حول استعمالها (120). إن التعبير في ذاته لا يحيل على أي شيء. وهناك فرق بين **ماأعنيه ودلالة التعبير** المستعمل. والمتكلمون هم الذين يعنون شيئا ما لا التعابير. فنحن نستعمل التعابير للاحالة على أشياء خاصة، أما دلالة التعبير فليست بجموع الأشياء أو الشيء الخاص الذي يحيل عليه التعبير حينما يُستَعْمَلُ استعمالا صحيحا. إن الدلالة هي مجموع قواعد استعمال التعبير وعادات هذا الاستعمال وتعاقداته في الفعل الاحالي. ومن الأكيد أن معرفة الدلالة لا علاقة لها مع معرفة استعمال مخصوص للجملة قصد الحديث عن أيء شي (121).

(118) Etudes de logique et de linguistique P.10

(119) نفسه ص 15 — 17

(120) نفسه ص 18

(121) نفسه. ص 20

ويؤكد ستراوسون الأهمية الكبرى التي يحظى بها سياق فعل القول ويعني به الزمان والمكان وهوية المتكلم والمواد التي تشكل مركز المنفعة المباشر والتاريخ الشخصي لكل من المتكلم والمخاطَب (122). وبالتالي، فإن التجربة الحياتية المعيشة هي التي تشكل الحقل المرجعي وأن الشيء المدرك لا يكفي أبدا لتحديد المرجع.

وامتدت مباحث المرجع لتطال بعض التعابير المخصوصة في اللغات خاصة مع التداولية وفعل القول. فقد توقف بنفنيست عند الضميرين «أنا» je و«أنت» tu وسماهما بالاشاريين indicateurs (123) معتبرا إياهما «دليلين فارغين» غير مرجعيين بالنظر الى الواقع، وغير قابلين لأن «يُمْلآ» إلا حينما يستعملهما المتكلم في كل عملية من خطابه (124). وبالطبع، فإن الاشاريات تتجاوز هذين الضميرين فنميز الاشاريات المكانية indicateurs spatiaux مثل : هذا، ذاك، هنا...؛ عن الاشاريات الزمانية *indicateurs temporels* مثل : الآن، اليوم، أمس، غدا... (125). ويقوم دور هذه الاشاريات ب «توفير وسيلة التخاطب conversation الذي يمكن تسميته بتخاطب اللغة في الخطاب (126). ويسمي بنفنيست هذا التخاطب بفعل القول : «إن فعل القول هو تشغيل اللسان من قبل فعل فردي استعمالي (127).

وتجدر الاشارة في هذا الصدد الى أن ياكوبسون (128) يسمي هذه الاشاريات بالمتغيِّرات Shifters والروابط embrayeurs. وقد أعطيت لهذه التعابير تسمية أخرى هي المبهمات déictiques.

وفي نفس السياق، اعتبر بول ريكور Paul Ricœure أن الضمائر غير دالة asémiques، فكلمة «أنا» je لادلالة لها في ذاتها (129)، إلا أن كربرات أوريكشيوني C.Kerbrat-Orecchioni ترى أنَّ فكرة كون المبهمات لا معنى لها أو أن معناها يتنوع بتنوع المقامات فكرة غير منسجمة ذلك أن ما يتغير مع المقام هو مرجع الوحدة المبهمة unité déictique لا معناها الذي

(122) نفسه. ص 29
(123) Problèmes de linguistique générale. I. P.253
(124) نفسه ص 254
(125) نفسه. ص 253
(126) نفسه. ص 254
(127) Problèmes de linguistique générale. II. P.80
(128) Essais de linguistique générale P. 176
(129) Métaphore vive P. 98

يبقى ثابتا من استعمال الى آخر (130). وبذلك فإن تعريف المبهمات لصيق بتعريف الاحالة (131) أو أن إحالتها لا تتحدد إلا بمعرفة سياق استعمالها.

أما ايلوار Eluerd فيحصر فئة المبهمات، انطلاقا من ثلاثية الدليل عند بورس، في **الدلائل ـــ القوانين الأمارية الخبرية** حيث تكون نسختها **أمارة فرعية أصيلة** (132).

ولقد حظيت أسماء الأعلام بنفس الاهتمام نظرا لما تثيره من مشاكل دلالية. إن أسماء الأعلام موضوعة denotent وغير موحية sans connoter ذلك أنها تخلو من أية دلالة (133)، فيما يرى أنصار النظرية الوصفية أن لها معنى من حيث إن الاسم العلم يوحي بشبكة من الخاصيات المجموعة في نفس المرجع مثل الزهرة Venus، أما الوصف المحدد description définie، فإنه يوحي بخاصية معينة للمرجع مثل «نجمة الصباح» (134).

وفي هذا الباب يميز كريبك S. Kripke المعيِّن العارض désignateur accidentel الذي لا يعيِّن نفس الشيء في كل **العوالم الممكنة**، مثل : كان على رئيس الجمهورية أن يكون على اليمين، عن المعيِّن الصارم rigide الذي لا يتغير وضعه dénotation ~~مهما كان العالم~~ المأخوذ بعين الاعتبار، مثل : كان على ميتران Mitterand أن يكون على اليمين (135).

والآن، كيف يمكن أن ننظر الى قضية المرجع والاحالة ؟ هل استطاعت، منذ أوكدن وريتشاردز، أن تحل مشكل الدلالة ؟

يعتقد أمبرطو إيكو أن الاخلال الكبير والأخطر الذي ألحقته وتلحقه خطاطة أوكدن وريتشاردز ـــ بالاضافة الى الاخلال الذي يقترح أن علاقة الدلالة تستلزم، قبل كل شيء، ثلاثة كيانات ـــ هو ذلك الاخلال الذي يقضي بإدامة الفكرة القائلة بأن لمدلول طرف علاقة مع الشيء الذي يحيل عليه الطرف. ذلك أن المرجع هو، بالفعل، الشيء الذي يسميه الرمز. أما الاحالة فهي شيء أكثر غموضاً. ولقد عرَّف أولمان Ullmann (1962) الاحالة باعتبارها الاخبار الذي ينقله الاسم الى «المتلقي» (136). أما فريج، فيرى فيها «المعنى» Sinn في تعارضه مع المرجع الذي هو «التعيين» Bedeutung. والمعنى هو «الطريقة التي يُقَدَّمُ إلينا وفقها الشيء»، والتعيين هو الشيء الذي يحيل عليه الشيء. وحسب مثال لراسل Russel : فإن **والترسكوت** Walter Scott **ومؤلف «وافرلي»** «Waverley» عبارة عن شكلين دالين

(130) *L'énonciation de la subjectivité dans le langage* P.36 — 37

(131) نفسه ص 40

(132) La pragmatique linguistique P.70

(133) J.S Mill in Récanati. la sémantique des noms propres : ramarques sur la notion de «désignateur rigide» in langue française N°57 P. 106

(134) نقلا عن la pragmatique linguistique P.140

(135) نفسه. ص 140 — 141

(136) la structure absente P.59 — 60

لهمانفس التعيين إذ يحيلان على نفس الكائن الانساني، إلا أن لهما معنيين لأنهما يقدمان نفس الشيء وفق مظهرين مختلفين (137).

ويلاحظ أمبرطو إيكو أن هذا المنظور للمدلول موجود في ثنايا التفكير المعاصر حول الدلائل سواء في التعارض بين الموضوع له والمعيَّن عند تشارلز موريس، أو في التعارض بين الماصدق والمفهوم في الفكر المنطقي، أو في التعارض بين الوضع والايحاء عند ستيوارت ميل Sturt Mill، أو بين الوضع والمعنى عند راسل وشاف schaff وغيرهم. ويرى أمبرطو إيكو أن المعنى عند البعض (بلومفيلد Bloomfield) يتطابق مباشرة مع الموضوع له (بمعنى التعيين)، وأن الموضوع له عند البعض الآخر، يبقى هو الشيء الذي يحيل عليه الدليل، أما المعنى meaning فيقترب أكثر فأكثر مما يسميه فريج بالمعنى Sinn (أولمان، أنطال Antal، كوين Quine، الخ...). إلا أن المشكل ليس هو مشكل وضع المدلول بوصفه معنى Sinn، وإنما هو مشكل إقصاء فكرة «التعيين» Bedeutung من كل مبحث سيميوطيقي بوصفه بقية تَحُول دون فهم الطبيعة الثقافية لسيرورة الدلالة (138).

وينتهي، من ذلك، أمبرطو إيكو إلى أن ربط إثبات دليل بشيء يحيل عليه يخلق مشكلين لا جدوى من ورائهما : أ ــ مشكل إخضاع قيمة الدال السيميوطيقية لِقيمة صدقه؛ ب ــ مشكل وُجُوب تحديد الشيء الذي يحيل عليه الدال الشيء الذي يفضي الى استغلاق شامل. وإذا عدنا الى (أ ــ) فإن إحدى عثرات السيميوطيقا قد كانت، على الدوام، هي تحديد مرجع الكلمات مثل **وحيد القرن** أو **القَنْطور** التي لا تناسب مبدئيا أي شيء موجود. ومن الأكيد أنه يمكننا أن نؤكد أن شيء الدليل ليس بالضرورة شيئا فيزيقيا وإنما يمكن أن تُشكله علاقة منطقية وخاصية وسيرورة. إن فريج قد اعتقد أن التعيين Bedeutung يجب أن «تدركه الحواس». ويمكن، بدون شك، لمفهوم المرجع كهذا أن يُسْتعمل في العلوم الطبيعية حيث يجب التأكد من كل إثبات حول الواقع بواسطة إجراءات تجريبية وحيث يجب الحكم عليه بالصدق أو الكذب (أي هل يناسب المرجع أولا يناسبه). إلا أن هذا اللجوء الى المرجع لا يساعدنا أبدا إذا كنا نود فهم كيفية اشتغال دليل ما، وسيجعلنا، أكثر من ذلك، نَفْهم كيف يشتغل المرجع. وهناك حل آخر معهود يكمن في القول بأن الأمر يتعلق بألفاظ لا مرجع لها وإنما لها إحالة. وإذا كان هذا الجواب مُرْضيا من جهة نظر منطقية، فإنه غير ذلك من جهة نظر سيميوطيقية، أو أن الجواب إذا كان مُرْضيا فلأنه يبيِّن أنه باستطاعتنا أن نستغني عن المرجع حينما نود مناقشة مدلول لفظة ما (139).

(137) نفسه ص 60
(138) نفسه. نفس الصفحة
(139) نفسه. ص 60 ــ 61

وكما يصرح بذلك أمبرطو إيكو، فإنه لا يؤكد عدم وجود أقوال ننزع الى إسناد قيمه «صادق» أو «كاذب» إليها حينما نقارنها بالأحداث الواقعية التي نعرفها من خلال تجربتنا. وبالاضافة الى ذلك، فإنه لا يؤكد أن متلقي الرسالة لا يحيل هذه الرسالة على «الأشياء» التي يتكلم عنها أو التي نتكلم عنها إذا افترضنا أننا نتكلم عن أشياء. فالذي يتلقى الرسالة التالية : **إن منزلك يحترق** يفكر، بدون شك، في منزله وسيعمل على التأكد من صدق القول حتى ولو تعلق الأمر بأستاذ السيميوطيقا الذي يقاسمنا نفس الاحتراس من المرجع. إلا أن هاتين الواقعتين لا صلة لهما بمجال السيميوطيقا لأنها تدرس الشروط المتحكمة في التواصل وفهم الرسالة فحسب (تسنين وفك السنن). إن الأسباب التي تجعل من الرسالة ذات معنى لا تتعلق بكون المتلقي يملك منزلا وأن هذا المنزل يحترق. إن المشكلة السيميوطيقية هي مشكلة تبادل علامات، هذا التبادل الذي يؤدي الى سلوك معين مستقل عن صدق التقرير أو كذبه... (140).

وفي حديثه عن مثالين يرى إيكو أنه ينبغي أن نسجل من جهة نظر سيميوطيقية ما يلي : أ) إن ثقافتنا تحتوي على أنواع سننية تجعل من جملة : **مات نابوليون بسانت هيلين في 5 ماي 1821** جملة مفهومة وتوحي بـ «صدق تاريخي»، ب) إن المجتمع الاغريقي الكلاسيكي يحتوي على أنواع سننية تجعل من الجملة التالية : **غزا أوليس مملكته مجددا بعد ما قتل المطالبين بالعرش** جملة مفهومة وتوحي ب «صدق تاريخي». وكون الجملة الثانية موحية ب «خرافة» سيماثل، على المستوى السيميوطيقي، الواقعة التي يمكن أن تحدث في حضارة قادمة، حيث سنقتنع، اعتمادا على وثائق ما تزال مجهولة (أو كاذبة)، بأن نابوليون قد مات في مكان آخر وفي تاريخ آخر (أو أنه لم يوجد أبدا). وهذا ما دفع بأمبرطو إيكو إلى القول بأن **السيميوطيقا لا تهتم بالدلائل إلا باعتبارها قوى اجتماعية. وهكذا، فإن مشكلة الكذب المهمة عند المناطقة هي مشكلة قبل ــ سيميوطيقية أو بعد ــ سيميوطيقية.**

فعوض أن نقول إن «**نجمة المساء**» موضوعة إزاء «شيء» ما فيزيقي كبير وذي شكل دائري ينتقل في الفضاء على بعد العديد من ملايين الكيلو مترات من الأرض كما يرى كوين Quine، فإنه علينا أن نقول بأن هذا التعبير موضوع بإزاء **وحدة ثقافية** مناسبة يحيل المتكلم نفسه عليها، وحدة ثقافية ورثها وفق شكل الثقافة التي يعيش فيها دون أن تكون له تجربة عن المرجع الواقعي. ذلك أن المنطقي وحده هو الذي يمكنه أن يعلم أن لها نفس تعيين Bedeutung تعبير «**نجمة الصباح**». أما الذي يبعث بهذا الدال أو الذي يتلقاه فيظن أنه بإزاء **شيئين** مختلفين، وله الحق في ذلك لأن الأنواع السننية الثقافية التي يحيل نفسه عليها تحتوي على وحدتين ثقافيتين مختلفتين. فحياته الاجتماعية لا تجري على أساس الأشياء بل على أسس

(140) نفسه ص 61

الوحدات الثقافية أو بعبارة أفضل، فإن الأشياء بالنسبة إليه وبالنسبة إلينا، لم يتم التعرف عليها إلا من خلال الوحدات الثقافية التي يعمل عالم التواصل على ترويجها **بدل ترويج الأشياء** (141). وإذا صح ذلك، فإن أية محاولة لتحديد مرجع دليل معين تفرض علينا تعريف هذا المرجع بوصفه كيانا مجرداً لا يغطي سوى تعاقد ثقافي. ويدعو أمبرطو إيكو، في الأخير، إلى اعتبار مفهوم المرجع مفهوما غير ذي جدوى بالنسبة للسيميوطيقا ومضر بها (142).

وبناء على مجموع هذه الانتقادات، يقدم أمبرطو إيكو مفهوما خاصا للوضع الذي يعني، عنده، الاحالة المباشرة التي يثيرها لفظ ما في متلقي الرسالة. ولأنه لا يرغب في اللجوء إلى حلول «ذهنية» «mentalistes»، فإن الوضع ينبغي أن يكون **الاحالة المباشرة التي يسندها السنن الى اللفظ في ثقافة معطاة**. ويعتقد أمبرطو إيكو أن مفهوم الوضع هذا يمكن أن يعادل مفهوم الماصدق بالمعنى الذي يُوضَعُ فيه اللفظ فحسب بإزاء طائفة الوحدات الثقافية التي تحتل موقعا معطى في حقل دلالي معين بدل أن يوضع بإزاء طائفة الأشياء الواقعية. ويُسَمَّى هذا المدلول الوضعي بالمعنى sense من قبل لاينس Lyons. إلا أن المدلول لا يمكن أن يُحدَّد، في كل الحالات، إلا من خلال السياق وظرف التواصل (143).

وينبغي لهذا التعريف للوضع أن يكون قادرا على أن يطبَّق أيضا على ثلاث فئات من الدوال التي تسلِّم، عادة، إلى سلسلة من الاستغلاقات الدلالية : أ ـــ الألفاظ الضوابط syncatégorimatiques؛ ب ـــ أسماء الأعلام، دوال الأنساق السيميوطيقية التركيبية الصرف غير المالكة لشخانة دلالية مثل الدوال الموسيقية.

وهكذا، ففيما يخص الضوابط، فإنه من الممكن تشكيل حقل دلالي للألفاظ التي لا تحيل نفسَها على أشياء خارجية والتي تقوم بوظائف نحوية. إن الألفاظ مثل : **هو، لِ أو مع ذلك** توضع لتحديد موقعها في حقل وظائف نحوية ممكنة. فهي، بهذا المعنى، توضع لوحدة ثقافية محددة...

أما مشكل أسماء الأعلام فهو قريب من مشكل هذه الدلائل الأيقونية التي تحيل نفسَها على شخص ما دون أن يُوضَع سنن محدد لتعيين بمن يتعلق الأمر (مثلا، الصور الفوتوغرافية لأشخاص مجهولين). فلو تلقى المرء الرسالة التالية Stefano، فإنه يملك «كفاءة» يتقاسمها مع العديد من الأشخاص من معارفه. وتحتوي هذه الكفاءة على وحدات ثقافية تشمل والديه وأصدقاءه، فيكون الدال stéfano موضوعاً بشكل مباشر بإزاء ابنه. وهذا يعني أنه يحدد موقعاً داخل نسق معين.

(141) نفسه ص 62

(142) نفسه ص 63 ـــ 64

(143) نفسه ص 87 ـــ 88

إن عالم أسماء الأعلام عالم فقير الى حد ما لسانيا حيث يتكاثر المشترك اللفظي Homonymie، إلا أن العالم الدلالي للوحدات الثقافية غني نوعا ما وكل وحدة تحدد داخله من قِبَل أنساق تعارضية جد محددة (144). وينبغي أن نقبل بأن أسماء الأعلام المتعلقة بأشخاص مجهولين توحي *connotent* إلا أنها ليست وضعية ils ne dénotent pas (145).

أما مصطلح الايحاء فيعطيه أمبرطو إيكو معنى يجعله يغطي العديد من الظواهر. فهو مجموع الوحدات الثقافية التي يمكن لتعريف مفهومي intensionnelle للدال أن يُشَغِّلَهَا؛ ومن هنا فهو مجموع كل الوحدات الثقافية التي يمكن للدال أن يثيرها، مؤسسيا، في ذهن المتلقي. وهذه الايحاءات متنوعة نذكر، من بين ما ذكره أمبرطو إيكو، الايحاءات الايديولوجية والانفعالية والبلاغية الأسلوبية... الخ (146).

□ □ □

يمكن القول إن سوسير، من خلال تعريفه لدورة الكلام، قد أوحى بأن الدليل عبارة عن أداة تواصلية بين شخصين يهدفان، عن قصد، الى التواصل. الشيء الذي جعل أنصار سيميولوجيا التواصل يعتبرون أن موضوع السيميولوجيا هو الأدوات التواصلية القصدية، فكانت الدلائل الاعتباطية هي التي توفر مثل هذا الشرط المعرفي. إلا أن سوسير، من خلال تعريفه للدليل؛ يكون قد أوحى بسيميولوجيا الدلالة. فكان أن رأى بارط أن كل الأشياء تدل وأنها تُسْتَخْدَمُ للتواصل مهما كانت طبيعة الدلائل وسواء توفرت القصدية أم لم تتوفر. وبذلك تكون السيميولوجيا هي العلم الذي يدرس مختلف الدلائل ـــ التي توسَّع مفهومها ـــ كيفما كانت العلاقة بين الدوال والمدلولات. وقد نهل الاتجاهان معا من اللسانيات البنيوية مع توظيف لمفاهيمها الأساسية التي خضعت مع بارط، لنوع من التوسيع والتعديل كي تستوعب الظواهر الدالة في اختلافها.

وإذا كانت سيميولوجيا التواصل تُقْصِي من موضوعها العديد من الظواهر باعتبارها لا تكوّن أصنافا من الدلائل، وإذا كانت سيميولوجيا الدلالة تعتبر الكثير من الأشياء دلائلَ، فإن سيميوطيقا بورس توسع من موضوعها ليشمل مختلف الظواهر الطبيعية والثقافية والعلمية أي مختلف الأنشطة الرمزية عند الانسان باعتبارها دلائل. وتصبح السيميوطيقا معه علماً شاملا وعلما جامعا ومانعا، حتى امتزجت بالمنطق والابيستيمولوجيا وكأنها صارت العلمَ الموحِّد بين مختلف العلوم. بل يمكن أن يُنْظَر الى سيميوطيقا بورس وسيميوطيقا الثقافة

(144) نفسه ص 88 ـــ 89
(145) نفسه ص 90
(146) نفسه. ص 91 ـــ 94

باعتبارهما نقدا للواقع وللعلم والايديولوجيا. وبذلك تكون السيميوطيقا هي تعاون مجموعة من العلوم وتداخلها (المنطق والفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس واللسانيات... الخ) من أجل خدمة الانسانية لأنها تستهدف دراسة أوجه النشاطات والفعاليات الانسانية في مظاهرها الدالة ودلالاتها الممكنة ماضيا وحاضرا ومستقبلا.

وإذا كان مجموع الثقافة عبارة عن تواصل ودلالة، وكانت السيميوطيقا هي العلم الذي يدرس التواصل وفهم الرسالة، فإن قضية المرجع لا ينبغي أن تدمج في السيميوطيقا لأن حياة الانسان الاجتماعية لا تسير على قاعدة الأشياء وإنما تسير، على قاعدة الوحدات الثقافية باعتبار عالم التواصل يقوم بترويج الوحدات الثقافية لا بترويج الأشياء. فالانسان لا يعيش في عالم الأشياء وإنما يعيش في عالم رمزي. والأشياء لا قيمة لها في ذاتها، وإنما قيمتها في المدلولات الثقافية التي يشحنها بها الانسان.

الخاتمة

منذ تصورِ سوسير للسيميائيات، قطع هذا العلم أشواطا علمية واسعة واخترق العديد من العلوم، بل إنه أعاد ترتيب العلاقات بينه وبين اللسانيات .والابيستيمولوجيا والفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع والأكسيوماتيك.

لقد انتقلت السيميائيات من تبعيتها للسانيات الى قيامها بجمع شمل العلوم والتحكم فيها، وأنتجت أدوات معرفية لمقاربة مختلف الظواهر الثقافية باعتبارها أنساقا تواصلية ودلالات.

ورغم أنها تبدو متعددة بحيث إن هذه الكلمة قد استعملت لتغطي ممارسات متنوعة، فإن لها وحدة عميقة تتجلى في كونها تنظر الى مختلف الممارسات الرمزية للانسان باعتبارها أنشطة رمزية وأنساقا دالة. وبذلك أوجدت لنفسها موقعا ابيستيمولوجيا شرعيا.

ولا يبدو أن للسيميائيات تاريخاً واحداً. فهي لم تنشأ مع سوسير أو مع بورس. إذ تعود نشأتها الى الفكر اليوناني مع كل من أرسطو وأفلاطون والرواقيين. إلا أن بدايتها تلك قد كانت عبارة عن أفكار متناثرة هنا وهناك تفتقر الى إطار نظري تتساوق داخله. ومنذ تلك الفترة، لم يخل الفكر الانساني المنطقي والفلسفي والبلاغي من عطاءات ذات بال. وضمن هذا الاطار تندرج عطاءات العرب القدامى. وقد بات من الضروري، بغية تطوير النظرية السيميائية وتأصيلها، العودة الى مثل هذه النصوص القديمة بحثا عن إيجاد الحلول المناسبة للمشاكل السيميائية القائمة.

المراجع الأجنبية

BAKHTINE (M.) 1977 : Le marxisme et la philosophie du langage. Minuit. Paris.
Barthes (R.). 1957. Mythologies. Seuil. Points. Paris
Barthes (R.) 1964. Eléments de sémiologie in communications n° 4
Barthes (R.) 1965. Eléments de sémiologie (à la suite de degré zéro de l'Ecriture) Denoël/Gonthier. Paris.
Barthes (R.) 1967. Système de la mode. Seuil. Paris.
Benveniste (E). 1966. Problèmes de linguistique générale. I. Gallimard. Paris.
Benveniste (E.) 1974. Problèmes de Linguistique générale. II. Gallimard. Paris
Bruzy (C.) Burzlaff (W.) Marty (R.), Réthoré (J.) 1980. La sémiotique phanéroscopique de Charles S. Peirce in langages n° 58.
Buyssens (E.) 1967. La communication et l'articulation linguistique. P.U.F. Paris
Carontini (E.) 1984. L'action du signe. Cabay, Librairie-Editeur. Louvain — La — neuve
Cassirer (E.) 1975. Essai sur l'homme. Minuit. Paris
Charaudeau (P.) 1983. Eléments de sémiolinguistique. Hachette. Paris.
Dascal (M.) 1978. La sémiologie de Leibniz. Aubier Montaigne Paris
Deledalle (G.) 1979. Théorie et pratique du signe. Payot. Paris
Derrida (J.) 1967. De la grammatologie. Minuit. Paris.
Eco (U.) 1972. La structure absente. Mercure de France. Paris.
Eco (U.) 1976. A theory of Semiotics. Indiana University Press.
Eco (U.) et Pezzini (I.) 1982. La sémiologie des Mythologies, in communications n° 36.
Eluerd (R.) 1985. La pragmatique Linguistique. Fernand Nathan. Paris.
Granger (G.G.) 1979. Langages et épistémologie. Klincksieck. Paris
Ivanov (V.), Lotman (Y.), Ouspenski (B.), Piatigorski (A). Toporov (V.) 1974. Thèses pour l'étude sémiotique des cultures in Recheches Internationales à la lumière du Marxisme n° 81
Jakobson (R.) 1963. Essais de linguistique générale. Minuit. Points. Paris.
Kerbrat-Orcchioni (C). 1980. L'énonciation de la subjectivité dans le langage. Armand Colin. Paris.
Lekomtsev (Y.K.) 1976. Quelques fondements de la sémiotique générale in systèmes de signes, ouvrage collectif. Ed. complexe. Paris.
Lotman (I.) 1973. La structure du texte artistique. Gallimard. Paris.
Lyons (J.) 1978. Eléments de Sémantique. Larousse. Paris.
Magalhâes (Th. Calvet de) 1981. Un, deux, trois catégories fondamentales, Cabay, librairie-Editeur. Louvain — La — neuve.
Meschonnic (H.) 1975. Le signe et le poème. Gallimard Paris.
Morris (C.) 1974. Fondements de la théorie des signes in langages n° 35.

Nef (F.) 1980. Note sur une argumentation de Peirce (à propos de la valence verbale) in langages n° 58.
Peirce (C.S.). 1978. Ecrits sur le signe. Seuil Paris.
Prieto (L.J.) 1968. La sémiologie in le langage. Ouv. collectif. Encyclopédie de la pléade. Gallimard. Paris.
Prieto (L.J.) 1975. Pertinence et pratique. Minuit. Paris.
Récanati (F.) 1983. La sémantique des noms propres. Remarques sur la notion de « désignateur rigide » in langue française n° 57.
Rey (A) 1976. Théories du signe et du sens. II. Klincksieck. Paris.
Ricœur (P.) 1975. Métaphore vive. Seuil. Paris.
Rossi-Landi (F). 1977. Linguistics and Economics. Mouton-the hague. Paris.
Saussure (F.de) Cours de linguistique générale. Payot. Paris.
Savan (D.) 1980. La séméiotique de charles s. Peirce. in langages n° 58.
Strawson (P.F.) 1977. Etudes de logique et de linguistique. Seuil. Paris.
Szepe (G.) et Voigt (V.) 1974. Alternatives sémiologiques. In recherches internationales à la lumière du marxisme, n° 81.
Thom (R.) 1974. Modèles mathématiques de la morphogenèse. 10-18. Paris.
Veron (E.) 1980. La sémiosis et son monde. in langages, n° 58.

فهرس المصطلحات

A

Adduction	افتراض
Actant	فاعل
Affectif	عاطفي
Allégorie	مثال
Analogie	تماثل
Arbitraire	اعتباطي
Argument	حجة
Articulation	تمفصل
Articulé	متمفصل
Assertion	تقرير
Association	ترابط
Auditive	سمعي

B

Bruit	ضوضاء

C

Canal	قناة
Code	سنن
Codes	أنواع سننية
Codification	تسنين

D

E

Emblème .... شارة

Embrayeurs .... الروابط

Enérgétique, ... طاقوي

Enoncé .... القول

Enonciation .... فعل القول

Expression .... تعبير

Extension .... ما صدق

F

Final .... نهائي

Fonction .... وظيفة، تابع

Fonction propositionnelle .... تابع قضوي

Fonction – signe .... وظيفة - دليل

Fondement .... عماد

Forme .... شكل

G

Geste .... إشارة

Gestuel .... إشاري

H

Homonymie .... مشترك لفظي

I

Icône .... أيقونة

Implication .... الاستلزام

Indication .... إشارة

Indicateur .... مُشير

Indice .... أمارة

Induction .... استقراء

O

Objectual .... شيئي

Objet .... شيء، موضوع

Occurence .... ورود

Olfactif (Olfactory) .... شمي

Onomatopées .... الكلمات المناسبة للطبيعة

Opposition .... تعارض

Organic .... عضوي

Organisme .... عضوية

P

Paire .... زوج

Paradigme .... وحدة استبدالية، أنموذج

Paradigmatique .... استبدالية

Para-linguistique .... مصاحب للّسان

Parole .... كلام

Performatif .... إنجازي

Phénoménologie .... ظاهراتية

Phonème .... فونيم (صَوَيْتَة)

Phonétique .... علم الأصوات

Phonologie .... صوتيات، فونولوجيا، صِوَاتَة

Postural .... أوضاع الجسد

Pragmatique .... تداولية

Prédicat .... محمول

Présupposition .... الاقتضاء

Primeité .... الأولية

Programmation .... برمجة

Pronom .... ضمير

Proposition .... قضية

Proxemic .... الإشارات الدّالة على القرب

Substance .... مادّة
Syntactique .... تركيبي
Syntagme .... مركب
Syntaxe .... تركيب
Symbole .... رمز
Symbolique .... رمزي - رمزية
Symbolisation .... رمزية
Syncatégorimatique .... ضوابط
Système .... نسق

T

Tactile .... لمسي
Terme .... طرف، حد
Tierceité .... ثالثية
Trichotomie .... ثلاثية

V

Valeur .... قيمة
Véhicule (vehicule) .... ناقل
Verbal .... لفظي
Visuel (visual) .... بصري، مرئي

فهـرس

الفصل الرابع

Les Editions Toubkal
Immeuble I.G.A. Place de la gare
Casablanca, Belvedère (05) — Maroc.
Tel : 24.06.05/42

مطبعة فضالة ـ المحمدية (المغرب)

لا أتوخى من هذا الكتاب سوى تقديم مجموعة من المعارف الضرورية والمفاهيم الأساسية للسيميائيات. وقد حاولتُ جهد المستطاع أن أكون أميناً في نقل وتعريب النصوص المعرِّفة بهذا العلم ومفاهيمه وأميناً للتعبير العربي رغم وفرة المصطلحات الأجنبية التي تطلَّب مني وضعها بعض الاجتهاد، فعسى أن أكون موفقاً فيما اخترته.

وبجانب النظريات السيميائية ومفهوم الدليل والتواصل والإخبار والدلالة والبرمجة والأنساق الدلالية، وفي سياق عرض الاتجاهات السيميائية، عرضت لمشكل الدلالة والمرجع منتهياً إلى تبني وجهة نظر سيميائيات الثقافة في معالجتها لهذين الأمرين.

ورغم أن الكتاب يبدو عرضاً لأفكار واتّجاهات مختلفة، فإن في طيّاته سيميائيات تنقد نفسها باستمرار، وتعيد بناء أسسها ومفاهيمها وأدواتها بعيداً عن أية نظرة ميتافيزيقيّة أو مثالية. فإما أن تكون السيميائيات نقداً للواقع ولنفسها، باعتبارها جزءاً من هذا الواقع، وإما ألا تكون. ولعلّ أهم ما يترتب عن ذلك، بالنسبة إلى هذا العلم، تداخله مع عدة مجالات معرفية، وبالتالي إعادة السيميائيات إلى موقعها الطبيعي ضمن مجموع النشاطات الفكرية للإنسان.



الموزع الوحيد في المملكة المغربية
الشركة الشريفية للتوزيع والصحف
(سوشبريس) - الدار البيضاء .